سبيل الله

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي ﴾

(صدق الله العظيم)

فلسفة الكذب

" كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب " حديث شريف

تأليف الدكتور

محمد مهدي علام

نائب رئيس مجمع اللغة العربية

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

الإهـداء

إلى زوجتى العزيزة

تقديراً لستين عاما من « المودة والرحمة »
التى زادتها رحلة الحياة حبا وسعادة .

محمد مهدى علام

رقم الإيداع بدار الكتب

١٢٥٥٢ / ٢٠٠٢

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصدر كل كمال ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد نبي الحكمة ورسول الهدى .

وبعد ففي سنة ١٩١٨ وأنا طالب بدار العلوم ، تاقت نفسى إلى قراءة كتاب باللغة الإنجليزية ، غير الكتب المدرسية التى كانت قراءتها لزاماً علينا . فاسترشدت بأستاذ اللغة الإنجليزية ، فأرشدنى إلى كتاب « العادات والأخلاق فى مصر الحديثة » لمؤلفه إدوَرْد لين .(١)

وقد قرأت فيه فقرة عن « كذب المصريين » هى أمرّ ما قرأت فى حياتى ؛ لأنها من أصدق ما قرأت فى حياتى . وحسبى أن أنقل منها بعض أجزائها هنا ليعلم

---

(١) Edward Lane, Manners and Customs of the Modern Egyptians.

القارئ أثرها فى نفس طالب ناشىء يدعى لأمته جميع الفضائل ، ويشعر بعزته القوميـة تجرح ، لأن كاتباً أجنبياً أصاب بوصفه المقتل ، ورمى أمة بما لا يستطيع أبناؤها أن يتنصلوا منه . قال الكاتب الإنجليزى[1] :

« إن التمسك بقول الصدق فضيلة أندر من الكبريت الأحمر فى مصر الحديثة ». وبعد أن تكلم فى صور الكذب المباحة التى نص الاسلام على جوازها ، قال إن هذا الجواز قد يسهل على الناس تكوين عادة الكذب ، فى غير المواضع المباحة ، مما حرمه الإسلام تحريماً قاطعاً . ثم انتقل إلى التدليل على صدق دعواه أن الكذب ذائع بين المصريين بقوله : « ولقد يجوز لى أن أذكر هنا ـ وإنى لأشعر إذ أقص هذا الخبر بشىء من العزة القومية ـ أنه كان فى المدينة (القاهرة) لأ... ل أرمنى معروف بصدقه معرفة جعلت أصدقاءه (من المصريين) يصممون على

---

(١) ص ٣١٢ من طبعة ١٩١٧

تسميته اسماً يدل على اتصافه بتلك الفضيلة النادرة فيهم ؛ فأطلقوا عليه اسم « الإنجليزى » ؛ وأصبح ذلك علماً على أسرته . ومن الشائع أن تسمع تجار القاهرة ، لدى طلبهم ثمناً لا يودون فيه مساومة ، يقولون : « كلمة واحدة ؛ كلمة الإنجليز » . وكثيراً ما يقولون كذلك : كلمة الإفرنج » .

تلك هى الصورة البغيضة التى صورها لى لِينْ منذ خمسة عشر عاماً ، تصويراً أبقاها فى ذهنى حتى اليوم . وإننى لأترك للقراء تقديرهم لذلك الاتهام الذى وجه إلى مصر منذ سنة ١٨٣٥، وهى السنة التى ظهرت فيها أول طبعة لذلك الكتاب . أما القسم الخاص من هذه الفقرة بالشعب الإنجليزى وافتخاره بصدقه ، فحسبى فى تقديره أن أذكر هنا الحادثة الآتية :

فى الأسبوع الأول من أكتوبر سنة ١٩٢٢ حضرت فى جامعة إنجليزية حفل الاستقبال والتعارف بين قدامى

الطلبة وجُدُدهم . وكان فى منهج الحفل عشرون أحجيّة عقلية عُلّقت فى مواضع مختلفة من قاعة الاحتفال ، ليحلها الطلاب قبل العاشرة مساء . وفى العاشرة وقف رئيس الحفل ليوزع الجوائز على الفائزين بحل هذه الأحاجى ، فنادى : من حل الأحاجى جميعاً ؟ فلم يجبه أحد . فنادى : فمن حل تسع عشرة ؟ فنهض طالب ؛ فتقدم إليه الرئيس مسلماً الجائزة بين تصفيق الحاضرين وإعجابهم . وأشهد أننى لم أكن شريكهم فى ذلك التصفيق ؛ لأننى كنت فى شغل عنهم ، بهم وبمقدار ثقتهم بصدق الفائز — فلا تفتيش ، ولا مجادلة ! ولم أستطع أن أسترسل فى أفكارى ، لأن الرئيس عاد ينادى : ومن حل ثمانى عشرة ؟ وهكذا . وكلما أجابه أحد الحاضرين سلمه جائزته من غير فحص ولا تحرّ ، حتى انتهى من شأنه . وعدت إلى تأملى ، فذكرت لينْ ، وكتابه ، وعبارته السابقة ، وفخره بقومه وبصدقهم . ورثيت لحالنا وفينا كتاب الله تعالى ، وسنة رسوله

الكريم ، لم يرفعا من فضيلة رفعهما من قدر الصدق ، ولم يضما رذيلة بما وصما به الكذب .

ولست أريد أن أنزه الإنجليز عن الكذب ، ولكننى أراهم أهلا لما يفخرون به من الصدق . على أننى أذكر هنا حادثة ذات مغزيين . كان من عادتنا فى جامعة الجنوب الغربى بإكستر أن نقوم بالرياضة البدنية فى حجرة الألعاب بإحدى المدارس الثانوية بتلك المدينة ، وكانت هذه المدرسة تعير الجامعة حجرة ألعابها فى أيام خاصة من كل أسبوع . وكان يشرف علينا فى ذلك العمل مدرب منتدب . وحدث فى ذات مساء ، ونحن نزاول تدريباتنا البدنية ،أن أخذنا نتقاذف كرة كبيرة فى أثناء فترة الراحة ، وركل أحدنا الكرة ركلة قوية صعدت بها إلى سقف الحجرة ، فأصابت أسلاك الكهرباء إصابة انطفأ لها النور . وهنا تقدم قاذف الكرة قائلا : لابد أن نبلغ ناظر المدرسة الثانوية بما حدث . وما كان أشد دهشتنا حين سمعنا

فى ذلك الظلام الدامس صوت مدربنا يقول لزميلنا الطالب : « لا تذكر الكرة ، ولا تفصل القول فى احتراق الأسلاك تفصيلا . » !

وأشهد أنه ما تلاقى اثنان منا منذ ذلك اليوم إلا كان أول ما يذكرانه عبارة المدرب فى إخفاء حديث الكرة وعدم تفصيل الحادث . فلئن دلت هذه الواقعة على أن فى الإنجليز من يكذب — ولا بد أن يكون فى كل أمة من يكذب — لقد دلت على أن جميع الطلاب الذين حضروها قد استنكروا هذا الكذب استنكاراً شديداً ، واتخذوا من صيغته ولهجته مادة لتهكمهم وازدرائهم . والحق أنه لم تقم لذلك المدرب قائمة بيننا بعد تلك الحادثة .

ولقد أتيحت لى منذ اشتغالى بالتدريس فرص كثيرة للمحاضرة فى فلسفة الكذب ؛ فكتبت منذ عامين بحثا فى نحو ثلاثين صفحة . وقد ألقيته على طلابى فى شعبة الأخلاق بقسم التخصص ؛ وحاضرت فيه أبنائى طلبة

دار العلوم ، وتحدثت به إلى جماعة « الشبان المسلمين » . وأنا فى كل مرة أزيد فيه وأعدل ، حتى عنّ لى أن أضعه بين يدى القراء ، زميلا لسابقه « فلسفة العقوبة » الذى أخرجته فى العام الماضى .

ولا يفوتنى أن أذكر هنا أننى نشرت بحثين من بحوث هذا الكتاب فى « مجلة الشبان المسلمين » فى عددى فبراير ـ مارس ، ومايو ـ يونيه لسنة ١٩٣٢

٢٤ شعبان سنة ١٣٥١
٢٣ ديسمبر سنة ١٩٣٢

محمد مهدى علام

حاشية :

لقد شاءت الظروف أن يظل هـذا البحث غير مطبوع ، شأنه شأن كثير من البحوث التى يشغل بها المرء حيناً من الزمن ، حتى إذا استودعها القرطاس ، زهد فيها وتحول إلى غيرها . ولـكننى أشعر بأن هذه الزهادة ليس فيها شىء من الإنصاف : فليس فيها إنصاف للعلم ، لأن العلم

يجب أن ينال حظه من التمحيص والنقد ، ولا سبيل لذلك إلا النشر ؛ وليس فيها إنصاف للأمة التى تدين كل ذى فكر وذى قلم بأن يفكر وبأن يكتب ، لا ليملأ مكتبه بالمخطوطات ، ولكن لينمى الثروة الفكرية فيها ؛ وليس فيها إنصاف لنفسى ، فربما كان فيما طويته ما يستحق أن ينشر .

لهذا أقدم كتابى هذا زميلا لأخيه الذى سبقه فى النشر « فلسفة العقوبة » . وإنه ليسرنى أن أشكر لزميلى الفاضل عبد الجواد معوض زيدان ، المدرس بالمدرسة التوفيقية جهوده فى مراجعة أصول هذا الكتاب معى قبل تقديمه للطبع .

١٣ شوال سنة ١٣٥٤
٨ يناير سنة ١٩٣٦

المؤلف

الفصل الأول

الكذب

الحدود الفاصلة بين الصدق والكذب .

نكاد لانعرف بحثاً من البحوث الأخلاقية يتصل بعضه ببعض اتصال البحث فى الصدق والكذب ! وهما على الرغم من ذلك صفتان متمايزتان إحداهما عن الأخرى تمام التمايز . ولئن تشابه الأمر على الإنسان فى عمل من الأعمال ، أيلحقه بالشجاعة ، أم بالتهور ، أم بالجبن ؛ أو اختلط عليه الأمر فى صفة من الصفات ، أيسميها سخاء ، أم سرفا ، أم تقتيراً ـ ماجاز أن يختلط عليه الأمر فى خبر من حيث تسميته صدقا أو كذبا . حتى الكذب الذى أجازته الديانات والأخلاق ، لم تشأ أن تلحقه بالصدق وإن رخَّصت فيه ؛ بل أبقت له اسم الكذب ، وسمته « الكذب المباح » على ماسيأتي تفصيله .[1]

(١) انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب.

معنى الصدق والكذب .

الأصل فى الصدق والكذب ألا يكونا إلا فى الخبر دون غيره من أنواع الكلام ؛ ولكن الأمر والنهى والاستفهام وبقية أضرب الإنشاء تتضمن كذلك أخباراً صادقة أو كاذبة ؛ ومن ثم تؤول إلى الخبر ، فقولك : هل قرأت الكتاب ؟ يتضمن إخبارك بأنك تجهل أمر قراءة الكتاب ؛ وقد تكون صادقاً فى هذا الإخبار الضمنى وقد تكون كاذبا . وكذلك قولك : ساعدنى ، يساوى قولك : إنى فى احتياج إلى مساعدتك ، وقولك : لاتسرقنى ، يتضمن إخبارك بأن المخاطب يسرقك . وقد تكون صادقاً وقد تكون كاذبا ، فى كل ذلك .

والصدق والكذب كما يكونان فى الأقوال يكونان فى الأفعال ؛ إذ كل فعل ليس فى الحقيقة إلا ترجمة عملية لرأى من الآراء [١] .

---

(١) سيأتى بيان أوفى لتلك النقطة تحت عنوان « الكذب العملى »

وللصدق إطلاقان : أحدهما أن تكون أعمالنا وفق أقوالنا ، بمعنى أننا إذا وعدنا وفينا ؛ وإذا تعاقدنا على أمر أنفذنا .[١] وثانيهما أن تكون أقوالنا وفق أفكارنا ، بمعنى أننا نخبر بما نعتقد أنه الحق الواقع . ومن الجلى أن هناك فرقا بين هذين الإطلاقين : فقد يعد الرجل بما ينوى عدم الوفاء به ، وهو فى هذه الحالة كاذب على الإطلاق الثانى ؛ ولكنه ليس من الضرورى أنه سيكذب على الإطلاق الأول ، فإنه بعد النطق بذلك الوعد قد يفى فعلا[٢] .

على أنه يجب أن نقولها كلمة صريحة من الآن : هى

(١) والمقصود أن ينوى المرء الوفاء ولو عجز عنه بعد ذلك . تدبر الحديث الشريف : « إذا وعد الرجل أخاه وفى نيته أن يفى فلم يجد فلا إثم عليه . »

(٢) راجع رأى روسو كما سيأتى فى الفصل السابع فهو متفق مع هذا التقسيم . وللغزالى تقسيم آخر تمليه فلسفته الصوفية فهو يرى أن للصدق ستة معان : صدق فى القول ، وصدق فى النية والإرادة ، وصدق فى العزم ، وصدق فى الوفاء بالعزم ، وصدق فى العمل ، وصدق فى تحقيق مقامات الدين كلها . (انظر الاحياء ، الجزء الرابع ص ٣٣١ — ٣٣٥)

أن العمدة فى الفصل بين الصدق والكذب هو **الاعتقاد** .
فنحن فى علم الأخلاق لانعتد فى الحكم الأخلاقى بغير عقيدة الرجل الذى يخبر بالخبر ؛ فإن طابق اعتقاده فهو صدق ، وإلا فهو كذب – وسواء فى هاتين الحالتين أن كان الخبر مطابقا للواقع أم لم يكن مطابقا له . وشأن المخبر فى نظر الأخلاقيين شبيه بشأن المجتهد فى نظر الأصوليين : إن أخطأ فى اجتهاده فله أجر ، أجر اجتهاده ، وإن أصاب فله أجران ، أجر اجتهاده ، وأجر إصابته . فإذا قال المنافق ، عن غير عقيدة : « محمد رسول الله » كان كاذبا ، ولو أن الخبر فى ذاته صحيح : « إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا : نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللهِ ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ [1] . »

ولقد عرض لهذا البحث علماء البلاغة عند الكلام فى تعريف الخبر بأنه « ما احتمل الصدق والكذب »

(١) سورة المنافقون آية ١

وملخص أقوالهم يرجع إلى الآراء الثلاثة الآتية :

(١) أن الصـدق هو ماطابق الواقع ، ولو خالف الاعتقاد ؛ ويرى كثير منهم أن هذا أصوب الآراء .

(٢) أن الصدق هو ماطابق الواقع والاعتقاد ؛ وهذا الرأى للجاحظ .

(٣) أن الصدق هو ماطابق الاعتقاد ، ولو خالف الواقع ؛ وهذا الرأى للنَّظَّام من أئمة المعتزلة [1] .

والعجيب من أمر هؤلاء البلاغيين أنهم يعدون رأى النَّظَّام سخيفاً ! ولكننا نرى قبس الفلسفة فى رأى ذلك الإمام المعتزلى ، وهو الرأى الذى لايدين علم الأخلاق بغيره.. ومن الطبيعى أن يكون هذا رأى النظام لأنه يساير مذهبه فى حرية الإرادة والمسئولية . على أننا لانذهب إلى حد وصم الرأيين الآخرين بالسخف ؛ فإن لهما وجهاً من العذر ، هو احترام الواقع الذى ينادى بتكذيب من يخبر بخلافه . غير أن هذا ، كما قدمنا ، لايعنينا فى البحث الأخلاقى.

(١) راجع شراح "التلخيص".

الكذب الصامت والكذب الشبيه بالحق .

والصدق فضيلة إيجابية لا يكفى لتحقيقها مجرد الكف عن الكذب الصريح ؛ فمن الممكن أن تتحاشى الكذب الإيجابى ولكنك مع ذلك لا تكون صادقاً . يقول رُوبَرْتْ لِوِسْ سْتِيفِنْسُنْ[1] : « كثيراً ما يكون فى الصمت أقسى أنواع الكذب ؛ فقد يجلس الرجل فى حجرة من الحجرات ساعات طويلة من غير أن ينبس ببنت شفة ، ثم يخرج منها وهو يحمل بين جنبيه أخبث أنواع الخيانة والختل[2] . » وهناك الباطل الشبيه بالحق ، فكم كذبةٍ قيلت فى ثوب حقيقة ! روى عن عبد الله بن عتبة قال : « دخلت مع أبى على عمر بن عبد العزيز ـ رحمة الله عليه ـ فخرجت وعلىَّ ثوب . فجعل الناس يقولون : هذا كساكه أمير المؤمنين ؛ فكنت أقول : جزى الله أمير المؤمنين

---

(١) Robert Louis Stevenson

(٢) The Pocket R. L. S., P. 135

خيراً ! فقال أبى : يا بنى ، اتق الكذب وما أشبهه . » فنهاه عن ذلك لأن فيه تقريراً لهم على ظن كاذب لأجل غرض المفاخرة .(١) وما أجمل المثل العربى الذى يقول : «لا تَكذبن ولا تَشَبَّهَن » !

الكذب العملى .

رأينا فيما تقدم كيف يكون كذب القلب ، وكذب اللسان ؛ وأشرنا إلى أن هناك كذبا فى الأعمال . وإليه يرجع بعض الفلاسفة جميع الشرور الأخلاقيـة قائلين : إن ارتكاب أى شر من الشرور الأخلاقية ليس إلا اعتداء صارخا على حرم حقيقة من الحقائق ، وتكذيباً عملياً لمبدإ من المبادىء الأخلاقية التى اصطلح الناس على احترامها . وفى طليعة هؤلاء الفلاسفة كلاَرْك (٢) ، وتلميـذه وُلاَسْتِنْ ؛(٣) وستيفِنْ (٤) .

---

(١) الإحياء ، ثالث ص ١٢٢

(٢) Clarke

(٣) Wollaston

(٤) Stephen

يقول وُلاستُن : «إن الشر الأخلاقى معناه إنكار عملى لحالة حقيقية ؛ وإن الخير الأخلاقى معناه إثبات عملى لها. فالسرقة عمل باطل ، لأنها تكذيب عملى لحقيقة حالة الشيء المسروق : أى إنكار أنه ملك صاحبه ، أو إنكار لحق الملكية . فكل عمل خير إثبات لحقيقة من الحقائق ، وكل عمل شر إنكار لحقيقة من الحقائق » . ويقول ستيفن : إن تأملا ونظرا داما ثلاثين عاما قد أقنعا وُلاستن بأن السبب الذى من أجله يمتنع الرجل عن قطع عنق زوجته هو أن هذا العمل طريقة من طرق إنكار أنها زوجته . وبعبارة أخرى : ليست جميع الخطايا إلا كذبا » . فإذا رأينا رجلا تطأ قدماه رجلا آخر ، كانت هذه طريقة واضحة جداً فى أنه ينكر أنه رجل مثله ، وأنه أخ له ، وأن له ماله وعليه ما عليه [1] .

---

(١) من أراد الاستزادة من هذا البحث فليرجع إلى :

(a) Mackenzie, Manual of Ethics,

(b) Le Rossignol, Ethical Philosophy of S. Clarke

صور الكذب

ويمكننا أن نرجع صور الكذب إلى الرذائل الآتية :

(١) المبالغة فى النقل وزخرفة القول ، بما يلقى فى رُوع السامع خلاف الحقيقة . « إنَّ اللهَ لاَ يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ [1] . »

قال ابن عباس – رضى الله عنهما – فى قوله تعالى : « وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ » أى ولا تخلطوا الصدق بالكذب . ويقول فرَنْسِيسْ بِيكُونْ [2]، « ... حتى أولئك الذين لا يعرفون الاستقامة والأمانة فى معاملتهم ، يعترفون لك بأنهما فخر الطبيعة الإنسانية ، وبأن خلط الحق بالباطل كخلط الذهب بالفضة ، قد يسهل استخدام المعدن ، ولكنه يحط من قيمته ؛ لأن هذه السبل الملتوية كسَيْر الأفعَى سيراً سافلا على بطنها لا على أقدامها [3] . »

---

(١) سورة المؤمن ٢٨

(٢) Francis Bacon

(٣) Lord Bacon's Essayes

(٢) الاقتصار على بعض الحقيقة ؛ وما أشبه هذا الصنف من الكذابين بمن يستشهدون من القرآن بآيات مبتورة يفسد بالبتر معناها ! كأن يقولوا : قال الله تعالى : « وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ » ، أو « لا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ » ، أو « يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ » ، أو « إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ »[١] .

(٣) النفاق وهو أن يظهر المرء خلاف ما يبطن . « إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ، وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا »[٢] .

« ـــ . . . . وتجدون شر الناس ذا الوجهين الذى يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه »[٣] .

---

(١) إن حذف كلمة واحدة من الخبر أو إضافة كلمة إليه ، يكفى لفقدان الخبر أهميته ؛ بل قد يقلبه إلى عكس معناه . يقول روبرت براوننج : " The little more and how much it is !" « تلك الزيادة الضئيلة ، وما أعظمها ! » وهى عبارة تشبه ما يقوله فقهاء المسلمين : « ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . »

(٢) سورة النساء ١٤٥

(٣) من حديث شريف ، رواه أبو هريرة ، وأخرجه الشيخان .

(٤) الملق وهو التزلف إلى الغير بكيل المدح له من غير استحقاقه إياه ، وهو ضرب من ضروب النفاق .

(٥) خلف الوعد ، وهو من الكذب العملى كما قدمنا .

« وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ [1] » .

وعد النبي صلى الله عليه وسلم ـ أبا الهيثم بن التيهان خادما ، فأُتِىَ بثلاثة من السبْى ، فأَعطى اثنين وبقى واحد ، فأتت فاطمة ـ رضى الله عنها ـ تطلب منه خادماً وتقول : ألا ترى أثر الرحَى بيدى ؟ فذكر الرسول موعده لأبى الهيثم فجعل يقول : كيف بموعدى لأبى الهيثم ؟ فآثره

---

(١) سورة التوبة ٧٥ ـ ٧٧

بالخادم على فاطمة حفظاً لوعده ، مع شدة حاجتها إليه ، إذ كانت تدير الرحى بيدها الكريمة .

(٦) التحفظ والتعمية . قال عيسى عليه السلام : « إن من أعظم الذنوب عند الله أن يقول العبد إن الله يعلم لما يعلم » ولقد تكون هذه الصفة لازمة فى بعض الشئون السياسية الدولية ؛ وقد يكون ثمة ما يبررها مما سيأتى أن نوضحه فى « الكذب المباح »[1]. وهى صفة لازمة لسفراء الدول ومندوبيها السياسيين .

قال السير هنرى وطن يصف السفير : « السفير هو رجل شريف يكذب لمصلحة بلاده » .

(٧) الافتخار والادعاء ، مما هو ملتق غير رذيلة ، ومنبع كثير من الشرور الأخلاقية . « إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ[2] . »

---

(١) راجع الفصل الرابع من هذا الكتاب .

(٢) سورة لقمان ١٨

(٨) ومن أشنع صور الكذب شهادة الزور « فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ »[١].

وما أبلغ ما يقول شوقى فى شهادة الزور : « يا شاهد الزور،أنت شرٌّ موزور ؛ ضللتَ القضاة ، وحلفت كاذباً بالله ، ونلت الأبرياء بأذاة ، وحلت بين القصاص والجناة ؛ والله يقول : « وَلَكُم فى الْقِصَاصِ حَيَاةٌ »[٢].

(٩) الافتراء ، وهو اختراع قصة لا أصل لها . « إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ؛ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ »[٣].

الكذب معول هدام فى الصرح الاجتماعى

ليس الصدق فرعاً من الشجاعة الأدبية فحسب ، ولكنه ثمرة تلك الشجرة . ومن شأن الناس أن يكونوا

---

(١) سورة الحج ٣٠

(٢) أسواق الذهب ص ٥٦

(٣) سورة النحل ١٠٥

صادقين ، من حيث إن الأصل فى الشىء أن يكون على ما هو عليه حتى يطرأ عليه ما يغيره [1] . وهو فوق ذلك ضرورة من ضرورات الحياة الاجتماعية لا تستقيم إلا به . قلب طرفك فى أية ناحية من نواحى الحياة تجد الصدق دعامتها التى بدونها تنهار : فإذا لم يكن التاجر صادقاً كسدت سوقه ، وبارت بضاعته ؛ وإذا لم يكن الصانع صادقاً لم يستخدمه صاحب رأس المال ؛ وإذا لم يكن صاحب رأس المال صادقاً لم يجد عمالا يعملون عنده ؛ وإذا لم يكن المعلم صادقاً لم يتتلمذ عليه تلميذ ولم ينقل عنه طالب ؛ وإذا لم يكن الحاكم صادقاً لم يثق به المحكومون ولم تنتظم له سلطة ؛ وإذا لم تكن الرعية صادقة استحال على الحاكم أن يأخذ بشهادة ، أو ينظر فى ظلامة ، أو ينصف مظلوماً ، أو يعاقب ظالماً . وقصارى القول أن الصدق

(١) انظر ما سيأتى فى فطرية الصدق عند الكلام فى « الكذب فى رأى النفسيين » الفصل الخامس .

إن ذهب من أمة ذهبت معه تلك الأمة ، وتصدع بناؤها . لذلك قرن الله الأمر بالصدق بالأمر بالتقوى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » [1] . فلقد تحيا الأمة وفيها جبناء رعاديد ، ولقد تبقى الأمة وفيها بخلاء أشحاء ، ولكن شمسها تحدر إلى المغيب إذا كان فيها الكذابون المفترون . روى صَفْوان ابن سليم قال : "قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟ قال : نعم . قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم . قيل : أفيكون كذابا ؟ قال : لا . » وإن أردت السر فى ذلك فاستمع إليه فى عبارة مَنْتين [2] حينما أخذ يتساءل ، فى جمال وروعة ، عن السبب الذى من أجله كانت كلمة « الكذب » عاراً لا يحتمل ، وسُبَّة يبرأ الناس منها . قال الفيلسوف الفرنسى العظيم : « إننا إذا تدبرنا ألفينا أن قولنا

---

(١) سورة التوبة ١١٩

(٢) Montaigne

فلان يكذب ، يعادل قولنا إنه جرىء على الله ، جبان أمام الناس . » [١] أجلْ فالكذاب يخشى الناس ولا يخشى الله، ويتوارى منهم وراء باطله ، ولا يتوارى منه سبحانه وتعالى .
« يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلاَ يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللهِ » [٢] .

الكذبة الواحدة :

ومن أقوى الدلائل على الحاجة الماسة إلى الصدق فى النظام الاجتماعى أن الكذبة الواحدة قد تزرى بالرجل فلا يُصدق أبداً ، وتسقطه فى الميزان الاجتماعى فلا تقوم له بعدها قائمة . وتعليل ذلك أن الكذبة الأولى ، كالكأس الأولى ـ وقيتم شر الاثنتين جميعاً ـ إذا ما أساغها صاحبها سهل عليه أن يردفها بثانية وثالثة ، حتى يصبح الكذب عنده رذيلة متأصلة . يقول المثل الإنجليزى : « ليس هناك ماهو فى افتقار إلى الكذب إلا الكذب . [٣] » ويقول

---

(١) Lord Bacon's Essay on "Truth"

(٢) النساء ١٠٨

(٣) "Nothing stands in need of lying but a lie"

ابن المقفع : « وقيل فى أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمام ، وخلة الأشرار ، وعشق النساء ، والنبأ الكاذب ، والمال الكثير . » [1] وقيل لخالد بن صبيح : أيسمى الرجل كاذباً بكذبة واحدة ؟ قال : نعم . [2] ولقد أدرك ذلك زياد ابن أبيه حين قال متحديا فى خطبته البتراء : « إن كذبة المنبر بلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم علىّ بكذبة فقد حلّت لكم معصيتى . فإذا سمعتموها منى فاغتمزوها فىّ واعلموا أن عندى أمثالها » . [3] وقال أبو حاتم : «لو لم يكن للكذب من الشين إلا إنزاله صاحبه بحيث إن صدق لم يُصدَّق، لكان الواجب على الخلق كافة لزوم التثبت بالصدق الدائم ؛ [4] وإن من آفة الكذب أن يكون صاحبه نَسيًّا ؛ فإذا كان

---

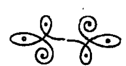
(١) الأدب الصغير ص ٧٥ طبعة محمد على الصناعية .

(٢) الاحياء . ثالث ص ١١٩

(٣) البيان والتبيين للجاحظ ، الجزء الثانى ص ٥٩ المطبعة الرحمانية.

(٤) هذه هى عقوبة الكذب الطبيعية التى ينصح بها رُسّو. راجع نظريته فى الفصل السابع .

كذلك كان كالمنادى على نفســه بالخزى فى كل لحظة وطرفة[1]. » من أجل ذلك قالوا : «إن كنت كذوباً فكن ذكوراً . » ويقول إبراهام لِنْـــكُـــلْنْ : « إنك تستطيع أن تخدع جميع الناس نصف الزمن ، ونصف الناس جميع الزمن ؛ ولـكنك لاتستطيع أن تخدع جميع الناس جميع الزمن . »



(٣) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء ، لأبى حاتم بن حبان البستى ص ٣٨ .

الفصل الثانى

الكذب والصراحة

الصراحة هى صورة قوية من صور الصدق لا تعلق به شائبة كذب . [1] ويفهم بعض الناس من الصراحة أنها الإفضاء إلى محدثك بكل ماتعلم ، من غير تأثم ولا تحرج ، فى جميع الأحوال ، على الرغم مما قد يكون فى ذلك من إيذاء غير ضرورى لشعوره ، أو إيقـاعه فى هوة القنوط ، أو دفعه إلى عمل ضار ، أو إلحاق ضرر بنفسك .

والحق أن للصراحة أحوالا ينبغى أن يكون لها فيها

---

(١) الصراحة والصروحة : النقاء من كل شىء ، وصرح نسبه : خلص ، وشتمه مصارحة وصراحا أى مواجهة ، وكأس صراح : لم تشب بمزاج ، والتصريح خلاف التعريض ، وفى الخمر : ذهاب زبدها . (القاموس المحيط)

اليد العليا ، كما أن لها أحوالا يجمل فيها أن تتقنع قليلا كما سيأتى بيان ذلك فى الكذب المباح . [1]

ومن أمثلة الصراحة المجيدة ماجرى لمعاوية مع الدارمية الحجونية ، على ماذكره مؤرخو الأدب . فقد حج بعد عام الجماعة ، فسأل عن امرأة من بنى كنانة كانت تنزل بالحجون ، يقال لها الدارمية الحجونية ، فأُخبِرَ بسلامتها ، فبعث إليها . فلما جاءت قال : أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك علاَمَ أحببتِ عليًّا وأبغضتِنى ، وواليتِه وعاديتِنى ؟ قالت : أو تُعْفينى ؟ قال : لا أُعفيك . قالت : أما إذْ أبيتَ فإنى أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقَسْمه بالسوية ؛ وأبغضتك على قتالِ من هو أولى منك بالأمر ، وطلَبْتِكَ ماليس لك بحق ؛ وواليت

(١) من أجل ذلك كان من الصدق الممقوت النميمة والسعاية وإن كانتا صدقا . ولذلك قيل : « كفى بالسعاية ذما أنه يقبح فيها الصدق ! » وقيل : « الراوية أحد الشاتمين . »

عليا على ماعقد له رسول الله من الولاء وحبه المساكين ، وإعظامه لأهل الدين ؛ وعاديتك على سفكك الدماء ، وجَورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى . قال : هل رأيتِ عليا ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيته ، والله ، لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تَشْغله النعمة التى شغلتك . قال : فهل لك من حاجة ؟ قالت : أو تفعل اذا سألتك ؟ قال : نعم . قالت : تعطينى مائة ناقة حمراء ، فيها فحلُها وراعيها . قال : تصنعين بها ماذا ؟ قالت : أغذو بألبانها الصغار ، وأستحيي بها الكبار ، وأكتسب بها المكارم ، وأصلح بها بين العشائر . قال : فإن أعطيتك ذلك فهل أحلّ عندك محلّ على بن أبى طالب ؟ قالت : سبحان الله ! أو دونه ! فأنشأ معاوية يقول :

إذا لم أَعُـدْ بالحلم منى عليكمو

فمن ذا الذى بعدى يُؤمَّل للحلم ؟

خذيها هنيئاً ، واذكرى فِعْلَ ماجدٍ

جزاك على حرب العداوة بالسلم .

ثم قال : والله لو كان على حياً ما أعطاك منها شيئاً .

قالت : لا والله ولا وَبَرةً واحدة من مال المسلمين[1]

فإذا صدقت هذه الرواية فذلك حديث امرأة تصارح أمير المؤمنين برأيها فيه وفى خصمه ، وتساجله الحديث لاتخشى بطشاً ولا عدواناً .

وكذلك ما أجاب به ضِرارٌ الصُّدائىّ معاويةَ حين طلب منه وصف على كرم الله وجهه . قال معاوية : ياضرار صف لى علياً رضى الله عنه . قال : أعفني يا أمير المؤمنين . قال : لَتَصِفَنّه ! قال : أما إذْ لا بُدّ من وصفه فقد كان والله ، بعيد المدَى ، شديد القُوى ، يقول فصلا ، ويحكم عدلا ؛ يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ؛

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه الجزء الأول باختصار قليل فى بعض المواضع .

يستوحش من الدنيا وزُهرتها ، ويأنس بالليل ووحشته ؛ وكان ، والله ، غزير العَبْرة ، طويل الفكرة ، يقلّب كفه ، ويخاطب نفسه ؛ يعجبه من الثياب ما قصر ، ومن الطعام ما خشن . كان فينا كأحدنا ، يجيبنا إذا سألناه ، وينبئنا إذا استنبأناه ؛ ونحن مع تقريبه إيانا ، وقربه منا ، لا نكاد نكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه لعظمته . يعظّم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله . وأشهد لقد رأيته فى بعض مواقفه وقد أرخى الليل سُدولَه ، وغارت نجومُه ، وقد مَثل فى محرابه ، قابضاً على لحيته ، يتململ تململ السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، ويقول : يا دنيا غُرّى غيرى . أَلِىَ تعرضتِ ؟ أم إلىّ تشوّفتِ ؟ هيهات ، هيهات ! قد باينتُكِ ثلاثاً لا رجعةَ فيها ؛ فعمرك قصير ، وخطرك حقير . آهِ من قلة الزاد ، وبعد السفر ، ووحشة الطريق ! فبكى معاوية

ـ رحمه الله ـ وقال : رحم الله أبا الحسن ، فلقد كان كذلك ! فكيف حُزنُك عليه يا ضرار؟ قال : حزن من ذُبح واحدُها في حِجْرها[1] .

وهذه كذلك صراحة رجل يخاطب خليفة المسلمين ، يصف له خصمه الذى نازعه وقاتله . ولكنه رجل لم يكن يطمع فى منزلة ، ولا يرنو إلى عطية ؛ بل كان لا يخشى غضباً إلا غضب الله تعالى ، ولا تأنيباً إلا تأنيب الضمير ؛ فقال ما اعتقد ، غير متحرج ولا متأثم .

ومن أقوى أمثلة الصراحة ما يؤثر عن الحجاج حين جلس لقتل أصحاب عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث : إذ قام رجل منهم فقال : أصلح الله الأمير ، إن لى عليك حقا ! قال : وما حقك ؟ قال : سبَّك عبد الرحمن يوماً فرددت عليه . قال : من يعلم ذلك ؟ قال : أَنْشُدُ اللهَ رجلا سمع ذلك إلا شهد به ! فقام رجل من الأسراء فقال : قد

---

(١) الأمالى لأبى على القالى ، الجزء الثانى .

كان ذلك أيها الأمير . فقال خلوا عنه ؛ ثم قال للشاهد : فا منعك أن تُنكر كما أنكر ؟ قال : لقديم بغضى إياك . فقال الحجاج : ويُخَلَّى عنه لصدقه (١)

وهذا مثال آخر يتحدث عن الصراحة وأثرها فى نفس سامعيها : إذ ذهب بِلال وصُهَيْب إلى أهل بيت من العرب ، يريدان أن يُصْهِرا إليهم ؛ فقيل لهما : من أنتما ؟ فقال بلال : أنا بلال ، وهذا أخى صُهَيب . كنا ضالَّيْن فهدانا الله ، وكنا مملوكَيْن فأعتقنا الله ، وكنا عائلين فأغنانا الله ؛ فان تزوجونا فالحمد لله ، وإن تردونا فسبحان الله . قالوا بل تُزَوّجان والحمد لله . فقال صهيب لبلال : لو ذكرت مَشاهدَنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فقال بلال : اسكت ، فقد صدقتَ فزوجك الصدق (٢) .

---

(١) الكامل للمبرد ، وتهذيب الكامل للأستاذ السباعى بيومى .

(٢) باكورة الكلام على حقوق النساء فى الإسلام ، للمرحوم الشيخ حمزة فتح الله ، الباب السادس .

الفصل الثالث

الكذب فى الديانات

تمهيد :

لقد أتت جميع الديانات الراقية بقدر من التشريع الاجتماعى والأخلاقى ، إلى جانب ما جاءت به من العقائد ـ وإن كانت تختلف فى المقدار الذى منحته عنايتها من ناحية التشريع الأخلاقى . ولكننا لا نجد ديناً واحداً قد ترك الكذب من غير أن ينهى عنه ، ويبين مضاره . وإنا لعارضون فى هذا الفصل لأهم الآراء الدينية الواردة فى الكذب ـ فى اليهودية ، والمسيحية ، والإسلام ـ عرضا نفهم به مرماها ، وندرك به حكمتها .

الكذب فى نظر اليهودية :

لقد تضمنت التوراة كثيراً من الآيات الناهية عن الكذب ، المنفرة منه . فقد جاء فى الإصحاح الثالث

والعشرين من سفر الخروج : « لا تقبل خبراً كاذباً [1] » .
فكان فى ذلك نهى عن الكذب فى جملته وتفصيله ؛ ثم جاءت الآية التالية ناهية عن صورة من أقبح صور الكذب هى شهادة الزور : « ولا تضع يدك مع المنافق لتكون شاهد ظلم » . ثم عادت التوراة تنهى عن الكذب فى عمومه ، وعن الكذب المتسبب عن الرشوة فى خصوصه فقالت : « ابتعد عن كلام الكذب ، ولا تقتل البرىء والبار ؛ لأنى لا أبرر المذنب . ولا تأخذ رشوة لأن الرشوة تعمى المبصرين ، وتعوّج كلام الأبرار » .

وفى الوصايا العشر ـ الإصحاح العشرين من سفر الخروج ـ « لا تشهد على قريبك شهادة زور » . وهذه الوصية وإن كانت فى المقام الأول من التعاليم الموسوية

---

(١) لقد اعتمدت فى نقل آيات التوراة والإنجيل ، المقتبسة هنا ، على الأصول العبرية والإنجليزية والعربية : واخترت النص العربى المطبوع إلا فى بضع ألفاظ استبدلت بها ألفاظاً أخرى أدل على المعنى وأدخل فى العربية .

فإنها تنهى عن هذه الرذيلة فى حدود ضيقة ـ هى حدود القرابة ـ مع أن الرذيلة تتحقق فى أية صورة أخرى . ويظهر أن تخصيص القرابة بالذكر فى هذه الآية كان لبيان فظاعة الجريمة فى حالة ذوى القربى ؛ إذ أن شهادة الزور إفك ممقوت فى أية صورة من صورها . وقد رأينا أن الآيات الأخرى تنهى عن الكذب عموما ، كما رأينا آية أخرى تنهى عن شهادة الزور على الإطلاق .

وجاء فى سفر الأمثال من التوراة : « لا تخترع شرا على صاحبك وهو ساكن لديك آمن . » ـ « انزع عنك التواء الفم ، وأبعد عنك انحراف الشفتين » . وهى كناية جميلة عن الكذب ، والزهو ، والغرور . ومثلها ما جاء فى الآية التالية : « الرجل اللئيم ، الرجل الأثيم ، يسعى باعوجاج الفم ؛ يغمز بعينيه ، يقول برجله ، يشير بأصابعه ؛ فى قلبه أكاذيب ؛ يخترع الشر فى كل حين » .

وجاء فى المزمار الرابع والثلاثين : « صن لسانك عن الشر ، وشفتيك عن التكلم بالغش » .

وفى أمثال سليمان عليه السلام : « هذه صفات يمقتها الله : عيون متعالية ، ولسان كاذب ، وأيدٍ سافكةٌ دما بريئًا ، وقلب ينشئُ أفكاراً سيئة ، وأرجل سريعة الجرى إلى الشر ، وشاهد زور ينطق بالباطل ، وزارع خصومات بين أخوة . » ونحن نرى أن معظم هذه الصفات الممقوتة يرجع إلى الكذب . فالعيون المتعالية رمز التكبر الذى هو ادعاء كاذب ، واللسان الكاذب أصرح ما يقال فى وصف الكذب ، وشاهد الزور أشنع الكاذبين ، وزارع الخصومات بين الأخوة يعتمد فى معظم الأحوال على الإفك والاختراع .

الكذب فى رأى المسيحية

وتقتضى تعاليم المسيحية تحريم الكذب . ولا بد أن نلاحظ أن المسيحية تستمد كل مافى التوراة من التعاليم الأخلاقية ؛ فكل ما نقلناه عن التوراة فيما سبق يعبر كذلك عن رأى المسيحيين فى الكذب . على أن الإنجيل

لم يترك هذه الرذيلة من غير تنديد بها . جاء فى الإصحاح السابع من إنجيل متى : « احترزوا من الأنبياء الكَذَبة الذين يأتونكم بثياب الحُملان ، ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة ؛ من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من الشوك عنباً ، أو من الحسك تيناً ؟ هكذا كل شجرة طيبة تخرج ثماراً طيبة ؛ وأما الشجرة الخبيثة فتخرج ثماراً خبيثة . . . وكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلق فى النار ؛ فإذن من ثمارهم تعرفونهم . »

الكذب فى رأى الإسلام

ليس يسع الباحثَ المطلعَ إلا أن يعترف بأن الإسلام قد عني عناية فائقة بشرح الكذب وأضراره ، والحث على الصدق والتمسك بأهدابه . فطالما قرن الله تعالى الصدق بالتقوى ومخافة الله : « يَأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً » (١) .

---

(١) سورة الأحزاب ٧٠

« يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ[1] . » — « إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ؛ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ[2] . »

كأنه يرى أن الصدق أُسّ من أسس الدين الرئيسية لا يتحقق إلا به . تدبر الحديث الشريف : « أربع إذا كن فيك فلا يضرك مافاتك من الدنيا : صدقُ الحديث ، وحفظ الأمانة ، وحسن خلق ، وعفة طُعْمة . » وأنت ترى أن الصفتين الأوليين ترجمان إلى الصدق القولى والفعلى .

وإنا لمقتصرون هنا على اقتباس الآيات والأحاديث التى لها دلالة خاصة ، لنقف وقفة قصيرة إزاء كل منها ، شارحين موضحين ؛ تاركين ماعدا ذلك مما يكاد لايدخل تحت حصر ، ومما يلتقى كله فى النقط التى آثرنا ذكرها .

---

(١) سورة التوبة ١١٩

(٢) سورة النحل ١٠٥

الصدق مثل أعلى :

لقد قرن الله تعالى بالصدق تقواه وعبادته ، كما قدمنا ، وجعله كذلك من صفات الأنبياء وخاصة الأتقياء ، تحبيباً فيه وحضا عليه : « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا [1] » — « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا [2] . » — « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيًّا [3] » « مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ [4] . »

الكذب أس الرذائل :

كما أبان الإسلام أن الصدق أس الفضائل ، كذلك أوضح أن الكذب أس الرذائل . روى صفوان بن سليم قال : قيل للنبي صلى الله عليه وسلم : أيكون المؤمن جباناً ؟

---

(١) ، (٢) ، (٣) سورة مريم ٤١ ، ٥٤ ، ٥٦

(٤) سورة الأحزاب ٢٣

قال : نعم . قيل : أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم . قيل : أفيكون كذابًا ؟ قال : لا . وقد سبق أن اقتبسنا هذا الحديث فى الفصل الأول وأبنا أهميته[1] وجاء فى حديث آخر : « ثلاث من كن فيه فهو منافق ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان . » ونحن إذا نظرنا فى هذه الصفات الثلاث لم نجدها إلا صوراً مختلفة للكذب ، حتى الخيانة ؛ فإن من قبل حمل الأمانة كان واعداً برعايتها ، فإن هو لم يرعها كان كاذبا كذبا عمليا[2] .

وحسبنا دليلا على أن الكذب رأس الذنوب ماروى عن الأعرابى الذى جاء إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فأسلم ثم قال : يارسول الله ، إنى أوخذ من الذنوب بما ظهر ، وأنا أستسر بخلال أربع : الزنا ، والسَّرَق ، وشرب الخمر ، والكذب . فأيهن أحببتَ تركتُ لك سراً . فقال رسول

---

(١) انظر ص ٢٥ — ٢٦

(٢) راجع فى الفصل الأول رأى كلارك ، وولاستن ، وستيفن فى « الكذب العملى . » ص ١٧ — ١٨

الله : دع الكذب . فلما ولى من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، هم بالزنا ، فقال يسألنى رسول الله ؛ فإن جحدت نقضت ماجعلت له ، وإن أقررت حُددت ، فلم يَزْن . ثم هم بالسرق ، ثم هم بشرب الخمر ، ففكر فى مثل ذلك . فرجع إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يارسول الله : قد تركتهن جُمَعَ [1] .

السر فى قبح الكذب :

الكذب غدر خبيث ، واستغلال وضيع لثقة سامعك بك . وجدير بك ألا تخون من ائتمنك ، وسامعك يأتمنك. ولقد تكفل الحديث الآتى ، على إيجازه ، ببيان السر فى قبح الكذب وشناعته . قال الرسول الكريم : « كَبُرَتْ خيانةً أن تحدث أخاك حديثا هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب . » ومن ثَمّ نرى أنك لو أعلنت لسامعك أنك ستقص عليه نبأ كاذبا ، ثم قصصت ذلك النبأ الكاذب ،

(١) الكامل للمبرد ، وتهذيب الكامل للأستاذ السباعى بيومى.

لم تكن كاذبا ؛ لأنك كشفت له عن عقيدتك ، ولم تستغل ثقته بك ، ولم تخدعه . ولذلك كانت أخبار المزاح ، وقصص التندر مباحة ؛ لأن لسان الحال يقول : إننا سنقص أخبارا وقصصا غير حقيقية [1] ولكن الاحتياط فى فهم هذا الجواز جدُّ لازم ، وهو ما سنبينه فيما يلى .

الكذب والمزاح

للمزاح شروط ، أخصها أن يدل عليه لسان الحال ؛ لأنه عندئذ يفقد السبب الذى من أجله قبح الكذب . غير أن بعض الناس يغفل هذا الشرط ، وقد يغالى إلى حد ممقوت . ولقد كان الرسول الكريم شديد التورع فى مزاحه ، فقد كان يمزح ولا يقول إلا حقا . تدبر الحديث الشريف : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب

---

(١) راجع فى هذه النقطة
Stapledon, Modern Theory of Ethics
وكذلك ما سيأتى فى الفصل الرابع عن « القصص الفكاهية ».

لنفسه ؛ وحتى يتجنب الكذب فى مزاحه . » إلى هذه الدرجة يدعونا الشارع الحكيم فى التباعد عن الكذب وما أشبهه . وتدبر الحادثة الآتية : قال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيتنا ،وأنا صبى صغير ، فذهبت لألعب ،فقالت أمى : ياعبدالله ، تعال حتى أعطيك؛ فقال صلى الله عليه وسلم : وما أردتِ أن تعطيه ؟ قالت : تمرا . فقال : أمَا إنك لو لم تفعلى لكتبتْ عليك كذبة .

مَرْحَى مرحى لهذا التأديب السامى ، لهذه الدقة فى التربية الأخلاقية ! ولا سيما أنها تتصل بحياة الطفل الذى قد يتعود أمثال هذه الكذبة التى يظن كثير من الناس أنهم فى حل من ارتباكها .

قال مجاهد : « إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل لِيُسْكتَ ابنه فيقول : أبتاع لك كذا وكذا ، فيكتب كذاباً » . وهذا يفسر لنا ذلك التحذير من الكذب فى المزاح فى قوله صلى الله عليه وسلم : « ويل للذى يحدث

فيكذب ليضحك القوم ! ويل له ! ويل له ! » فالمقصود هو شدة التخويف من الكذب حتى لايجرى على الألسنة.

وينبغى ألا يفهم على أن المقصود منه هو تحريم المزاح تحريماً باتاً ، فمزاح الرسول كثير متواتر . قال أنس : إن النبي — صلى الله عليه وسلم — كان من أفكه الناس مع نسائه . وروى الحسن قال : أتت عجوز إلى النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال لها صلى الله عليه وسلم : لا يَدخُلُ الجنةَ عجوز ؛ فبكت ، فقال : إنك لست عجوزا يومئذ ؛ قال الله تعالى : « إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا » . وجاءت امرأة أخرى فقالت يارسول الله ، احملنى على بعيرٍ ، فقال : بل نحملك على ابن البعير ، فقالت : ما أصنع به ؟ إنه لا يحملنى . فقال صلى الله عليه وسلم : ما من بعير إلا وهو ابن بعير.

وفى ذلك يقول الإمام الغزالى : « وأما المزاح فهو منهى عنه إلا عن يسير لا كذب فيه ولا أذى . وأما

السخرية فهى التنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ؛ ومهما يكن مؤذيا حرم ، وإلا فلا . »[1]

وسنعود لهذا الموضوع فى الفصل الرابع .

الصدق مهما كانت النتائج

ذلك هو روح التشريع الإسلامى . تدبر قول عمر رضى الله عنه : « لأن يَضَعنى الصدق ـ وقلما يفعل ـ أحب إلى من أن يرفعنى الكذب وقلما يفعل » .

وفى هذا تقول الحكمة العربية : « دع الكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرك . وعليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك ؛ فإنه ينفعك. » وما أجمل ما يقول ابن السماك : « ما أرانى أوجَر على ترك الكذب ؛ لأنى إنما أدَعُه أنفةً » .

وحسبنا فى بيان موقف الإسلام من الكذب ما روته أسماء بنت عميس قالت : « كنت صاحبة عائشة فى الليلة التى هيأتها وأدخلتها على رسول الله صلى الله عليه

(١) روضة الطالبين وعمدة السالكين .

وسلم ، ومعى نسوة ؛ قالت : فو الله ما وجدنا عنده قرًى إلا قدحاً من لبن ؟ فشرب ثم ناوله عائشة ، قالت فاستحيت الجارية ؛ فقلت لها : لا تردى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خذى منه . قالت : فأخذتْ منه على حياء فشربت منه ؛ ثم قال : ناولى صواحبك . فقلن : لانشتهيه . فقال : لا تجمعن جوعاً وكذباً . قالت ، فقلت : يا رسول الله ، إن قالت إحدانا لشىء تشتهيه لا أشتهيه ، أيعد ذلك كذباً ؟ قال :

« إن الكذب ليكتب كذبا حتى تكتب الكذيبة كذيبة . »

الفصل الرابع

الكذب المباح

بين الصراحة والكذب

قلنا إن للصراحة أحوالا يحسن فيها ألا تظهر سافرة الوجه؛ بل ينبغي أن تتقنع بقناع رقيق يلطف من حدتها، ويَفُلّ من شَباتها، ولكنه لا يطمس معالم الحقيقة، ولا ينزل بها إلى وهدة الكذب الخبيث. غير أن هذا القناع ليس في الواقع إلا سترا للحقيقة في صورتها الناصعة؛ فهو إذن نوع من الكذب. ولقد أباحت الشرائع والعرف بعض أنواع الكذب، مشترطة في ذلك شروطا قاسية حكيمة، حتى لا يمتد شرر الكذب من الدائرة المباحة إلى الدائرة المحظورة. ويسمى المسلمون هذا النوع من الكذب « الكذب المباح »؛ ويسميه الإنجليز: « الكذب

الأبيض »[1]؛ ويسميه الفرنسيون : «الكذب المُعْذَر »[2]؛ ويسميه الألمان : « الكذب الاضطرارى » أو « الكذب الرسمى »[3].

لماذا يجوز الكذب المباح ؟

والأصل فى إباحة هذا الضرب من الكذب أنه يحقق عملا طيبا يفوت بالتزام الصراحة : أرأيت لو كنت طبيبا فسألك عن حاله مريض فى حالة سيئة ، وكان فى إخبارك إياه بالحقيقة إيلام له قد يقض عليه مضجعه ، ألا تظن أن تقنيع الحقيقة هنا أمر ليس مباحا فقط ، بل قد يكون لازما ؟[4] ثم افرض أنك كنت قاضيا وجاءك أحد

---

(١) « White lies »

(٢) « Mensonge Excusable »

(٣) « Die Notlüge »

(٤) إنى لأذكر أننى وافقت صديقاً كان مريضاً إلى طبيب من أشهر أطبائنا الباطنيين . وبعد فحصه المريض ، أخبره بأن حالته حسنة وبأنه فى احتياج إلى الراحة ، ولكنه أسر إلى أنه يشتبه فى أن يكون لدى مريضنا التهاب الأعور ، ونصح بأن يختبر بالأشعة من غير أن

المتقاضين يسألك عن رأيك فى قضية ستفصل فيها ـ فهل يحل لك أن تخبره برأيك حينئذ ؟ أو افرض أنك محام عن رجل ، وجاء خصمه أو محاميه يسألك عن أوجه دفاعك أو عن المستندات التى ستقدمها إلى المحكمة — فهل التزام الصدق الصريح هنا أمر يقره العقل ، أو يؤيده الدين ، أو يرضى عنه العرف ؟ وافرض أنك تحقق قضية تريد أن تصل فيها إلى الحق باعتراف الجناة — فلن يضيرك ، وأنت تسأل أحدهم ، أن تخبره بأن شريكه قد اعترف (ولم يكن قد اعترف) ليعترف هو لك[1] .

نزعجه ، ثم قال لى : حذار أن تخبره بحقيقة أمره ، لأن حالته العصبية لا تحتمل الخبر . ولقد يفحصه زميل من زملائى فيعجب كيف أنى لم أعرف المرض ، ولكنى أفضل أن يدعونى زميلى حماراً على أن أقض مضجع مريض العصبى ليلة واحدة .

ولقد كان صادق الرأى فى المرض الجسمى صدقه فى الاضطراب العصبى .

(١) يقول المثل الإنجليزى : « لاضير فى كذبة توصل إلى الحق »
« Tell a lie to find the truth . »
على أن لفقهاء القانون آراء خلافية فى التقدير القانونى للاعتراف الذى يحصل عليه المحقق بمثل هذه الوسيلة ، فليرجع إليها من شاء .

الكذب المباح فى الإسلام .

ولما كان الإسلام شديد الرعاية لمصالح العباد ، وكان الروح السائد على تعاليمه الأخلاقية هو الروح العملى — لم يكتف بالسكوت عن هذه الأحوال المباحة ، بل نص عليها نصاً حتى لا يترك لنا شبهة فى جوازها ، وحتى لا يترك مجال التأويل فيها فسيحاً . ولعل أحسن بيان لوجهة الإسلام بهذا الصدد هو ما كتبه الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » وإنى لملخص رأيه هنا فيما يلى : —

١ — يرى الغزالى أن الكلام وسيلة إلى مقصد من المقاصد ؛ فكل مقصود محمود يمكن التوصل إليه بالصدق والكذب جميعاً فالكذب فيه حرام ؛ وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحاً ، وواجب إن كان القصد واجباً.

٢ — فإذا كان حقن دم محرم يتوقف على الكذب على ظالم يتعقبه فذلك الكذب واجب . وإذا كان مقصود

الحرب لايتم ، أو إصلاح ذات البين ، أو استمالة المجنى عليه ، إلا بكذب ـ فالكذب مباح .

٣ — غير أنه ينبغى للمرء أن يتحرز من ذلك الكذب ويتأثم فيه جهد استطاعته ؛ لأنه إذا فتح باب الكذب على نفسه خيف أن يستطرد إلى مايُستغنى عنه ، وإلى مالا يقتصر على حد الضرورة . فيكون الكذب حراما فى الأصل إلا لضرورة [1] .

---

(١) أرى أن الغزالى هنا أدق فى تعبيره من محي الدين بن عربى ، حيث يقول فى « فلسفة الأخلاق » : « ومنها الكذب ، وهو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه . وهذا الخلق مكروه مالم يكن لدفع مضرة لايمكن أن تدفع إلا به ، واجترار نفع لاغنى عنه ولايوصل إليه إلا به ، فإن الكذب عند ذلك ليس بمستقبح . وإنما يستقبح الكذب إذا كان عبثا ولنفع يسير لاخطر له ولا يفى بقباحة الكذب . » فابن عربى لم يحدد لنا تلك المضرة ولا ذلك النفع اللذين يترتب عليهما إباحة الكذب أو تحريمه ، ولم يبين لنا المقياس الذى نقيس به النفع أو المضرة : أهو المقياس الشخصى أم المقياس العرفى الخ . وإنى لأرى أن بعض الكذب للعبث أقل ضرراً مما يسميه ابن عربى كذبا مباحا لدفع مضرة لايمكن أن تدفع إلا به .

٤ — ويستدل الغزالى على إباحة مايباح من الكذب بعدة أحاديث ؛ منها ماروى عن أم كلثوم ، قالت : « ماسمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يُرَخّص فى شىء من الكذب إلا فى ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول فى الحرب ، والرجل يُحدّث امرأته والمرأة تحدّث زوجها . » وروت أيضاً : « ليس بكذاب من أصلح بين اثنين ، فقال خيراً ، أو نمى خيراً . » وقالت أسماء بنت يزيد : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا رجل كذب بين مسلمَين ليصلح بينهما . » وفى رواية أخرى : « مالى أراكم تتهافتون فى الكذب تهافت الفَراش فى النار ؟ كل الكذب يكتب على ابن آدم لامحالة ، إلا أن يكذب الرجل فى الحرب ـ فإن الحرب خدعة ـ أو يكون بين الرجلين شحناء فيصلح بينهما ، أو يحدث امرأته يُرْضيها . »

ونحن نرى أن هذا التسامح فى الدرجة الأولى من

السعي وراء السلام الاجتماعي . فالإصلاح بين الإخوان عمل جميل تترتب عليه نتائج طيبة ؛ وصفاء المودة بين الزوجين من أهم الأغراض التي يسعى إليها الإسلام ؛ ولذلك أباح للزوجين أن يتقارضا الود ، ويتبادلا المجاملة والمحبة ، ولو أطرى كل منهما الآخر بما ليس فيه . وهذا هو مايسميه الإنجليز « تزييت العَجَل » . يقصدون عجل الأسرة لتظل مركبتها سائرة سيراً حسناً . أما عن كذب الحرب فهو في الحقيقة ليس كذبا ؛ لأنه – إلى أن الحرب خدعة – يلاحظ أن الحال بين المتحاربيْن تنادي بألا يصدق أحدهما الآخر . وفي هذه الحالة ينتفي سبب تحريم الكذب الذي هو استغلال ثقة السامع كما قدمنا [1]

٥ – وروي عن أبي كاهل قال : « وقع بين اثنين من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – كلام حتى تصارما . فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ، فقد سمعته يحسن

(١) راجع « السر في قبح الكذب » – الفصل الثالث ص ٤٤-٤٥

عليك الثناء؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك ، حتى اصطلحا . ثم قلت : أهلكت نفسي وأصلحت بين هذين ؛ فأخبرت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : يا أبا كاهل ، أصلح بين الناس .» أي ولو بمثل هذا النوع من الكذب .

٦ — ويلحق الغزالى بالمباح من الكذب ، الكذبَ على الصبيان : « فإن الصبي إذا كان لا يرغب في المكتب إلا بوعد أو وعيد أو تخويف كاذب كان ذلك مباحاً .[1] »

« ـــ . . . إذ المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ماهو عليه نفسه ، إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة ، وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجرى مجراهم [2] . »

هذا ما يقوله الغزالى ولكننا نخالفه هنا مخالفة صريحة ؛ لأن هذه سبيل شائكة محفوفة بالمخاطر . ونحن نخدع أنفسنا حين نعتقد أن الطفل ينسى ما وُعَد أو يُتوعَّد به . وإذا نحن

(١) الإحياء الجزء الثالث ص ١٢١
(٢) الإحياء الجزء الرابع ص ٣٣١

لم نفِ بما جرى على ألسنتنا لأطفالنا من وعد أو وعيد، فقد لقّناهم أول درس عملى مؤثر فى الكذب. وعلينا ألا نلوم إلا أنفسنا حينما نراهم يكذبون. أفيجوز أن نلزمهم بما نحِلّ لأنفسنا التخلى عنه؟ «أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ؟[1]» ولو أن الغزالى أحسن فهم الحكمة النفسية فى حديث من الأحاديث التى رواها هو نفسه، ماوقع فى خطته هذا: فقد نقل الغزالى فى نفس الموضوع الحديث الشريف الذى سبق أن استشهدنا به،[2] وهو مارواه عبد الله بن عامر قال: «جاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيتنا، وأنا صبى صغير، فذهبت لألعب؛ فقالت أمى: ياعبد الله تعال حتى أعطيك. فقال صلى الله عليه وسلم: وما أردت أن تعطيه؟ قالت: تمراً. فقال: أما إنك لو لم تفعلى لكتبتْ عليك كذبة.» ولا شك أن فى

(١) سورة البقرة ٤٤

(٢) راجع الكذب والمزاح، فى الفصل الثالث من كتابنا هذا. ص ٤٥ - ٤٦

هذا التحذير من السخاء بالوعد ، والشح بالوفاء لردا بليغاً على زعم الغزالى ، ودرساً نافعاً لأولئك الآباء والأمهات والمعلمين الذين يخدعون بالمواعيد أطفالهم ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون . (١)

ولعل مكاتب الصبيان لعهد الغزالى كانت مبغضة إلى قلوب الأطفال ، ولكن الدواء لايكون بإغراء الأطفال بالوعد ، أو تخويفهم بالوعيد ، بل بجعل المدارس جذابة محبوبة للتلاميذ .

٧ — ويختتم الغزالى كلامه فى « الكذب المباح » بتحذير حكيم ، خشية أن يسىء الناس فهم المقصود من الكذب المباح ، فيقول : « وكل من أتى بكذبة فقد وقع فى خطر الاجتهاد ، ليعلم أن المقصود الذى كذب لأجله هل هو أهم فى الشرع من الصدق أم لا وذلك غامض جداً ؛

(١) ومثل هذا صراحة فى الرد على الغزالى حديث مجاهد : « إن الكلام ليكتب حتى إن الرجل ليُسكت ابنه فيقول أبتاع لك كذا وكذا ، فيكتب كذابا » انظر ص ٤٦ .

والحزم تركه ، إلا أن يصير واجباً بحيث لايجوز تركه ، كما لو أدى إلى سفك دم أو ارتكاب معصية كيف كان [1]. » ولا شك أن على المرء أن يتدبر كثيراً قبل أن يقدم على الكذب المباح ؛ فكثيراً مايخدع المرء نفسه ويسمى مباحاً ما ليس مباحاً ؛ لأن الإنسان شديد المحاباة لنفسه ، كثير الاعتداد برأيه . والخير عندنا أن يخطىء فيجتنب كذباً مباحاً ، من أن يزل فيكذب كذباً غير مباح .

التعريض لا التصريح :

ويحمل أن يكون الكذب المباح تعريضاً لاتصريحاً ، صيانة للسان عن صريح الكذب ؛ كقول إبراهيم عليه السلام : « إنى سقيم . » فإنه حين أراد أن يتخلف عن قومه ليحطم أصنامهم ، نظر نظرة فى النجوم ، فقال : إنى سقيم . فظنوه مريضاً ، فتركوه ؛ وما كان سقيما إلا من

(١) راجع رأى الغزالى،فى الجزء الثالث من « إحياء علوم الدين » ص ١١٩ - ١٢٣ طبعة الحلبى .

أصنامهم التى كان قد عقد النية على تحطيمها . وكذلك قوله لقومه بعد أن عادوا ورأوا ماحل بآلهتهم فقالوا : « أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم ؟ » إذ قال : « بل فعله كبيرهم هذا . » ومن ذلك قول أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حين سئل عن رفيقه ، وهو مهاجر مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ فقال : هاد يهدينى السبيل .

ومن أجمل الأمثلة على ذلك ماروى عن أنس قال : اشتكى ابن لأبى طلحة فمات، وأبو طلحة خارج ولم يعلم بموته، فلما رأت امرأته أنه قد مات هيأت شيئاً ونحته فى جانب البيت . فلما جاء أبو طلحة قال : كيف الغلام ؟ قالت : قد هدأت نفسه ، وأرجو أن يكون قد استراح . فظن أبو طلحة أنها صادقة . ثم قربت له العشاء ، ووطأت له الفراش . . . فلما أراد أن يخرج أعلمته بموت الغلام ، فصلى مع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم أخبره بما كان منها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لعله أن يبارك الله

لكما فى ليلتكما ! فجاءهما تسعة أولاد كلهم قرءوا القرآن[1] .

القصص الفكاهية

ومن الكذب المباح القصص الفكاهية يقصها الرجل ليتفكه بها مع خلانه ؛ لأن العرف ولسان الحال جريا على أن مثل هذه الحكايات تقال على أساس أنها مختلقة . فكأن القائل يعلن أنه سيقول قولا كذباً لغاية بريئة ؛ فالسر فى تحريم الكذب معدوم فى هذه الحالة ، لأنه ليس فى السامعين من يظن أن المتكلم يقرر مايعتقده ، حتى يترتب على ذلك نتيجة ما . تدبر الحديث القائل : « كَبُرتْ خيانةً أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق ، وأنت له به كاذب . » وبذلك نفهم المقصود من الحديث الذى اقتبسناه فى الفصل السابق « ويل للذى يحدث فيكذب ليضحك به القوم ! ويل له ! ويل له ! »[2] فالويل لمن يستغل ثقة سامعه

---

(١) حسن الأسوة ، بما ثبت من الله ورسوله فى النسوة ص ٢٢٩

(٢) انظر ص ٤٦ — ٤٧

فيحدثه ، جاداً أو مازحاً ، حديثا هوله به مصدق والقائل فيه كاذب .

يَقُولُ النُّوَيْرى فى « نهاية الأرب » فى باب عقده للمجون والنوادر والفكاهات والملح[1] . « وهذا الباب مما تجذب النفوس إليه ، وتشتمل الخواطر عليه ، فان فيه راحة للنفوس إذا تعبت وكلّت ، ونشاطا للخواطر إذا سئمت وملّت ، لأن النفوس لاتستطيع ملازمة الأعمال ، بل ترتاح إلى تنقل الأحوال ، فإذا عاهدتها بالنوادر فى بعض الأحيان ، ولاطفتها بالفكاهات فى أحد الأزمان ، عادت إلى العمل الجِد بنشطة جديدة ، وراحة فى طلب العلوم مديدة . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (روّحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فان القلوب إذا كلّت عَميت) » .

وقيل لسفيان : المزاح هُجْنة ، فقال : بل سنَّة ، لقوله

---

(١) نهاية الأرب ، السفر الرابع ، الباب الثالث من القسم الثالث من الفن الثانى .

عليه الصلاة والسلام : «إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق» .

ومن مزاح الرسول عليه الصلاة والسلام أنه قال لامرأة من الأنصار : « الحق زوجك ففى عينه بياض » فسعت المرأة نحو زوجها مرعوبة ، فقال لها : مادهاك ؟ فقالت : قال لى رسول الله صلى الله عليه سلم : إن فى عينك بياضاً ، فقال : إن فى عينى بياضاً لا لسوء .

ونظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى أعرابى قد صلى صلاة خفيفة ، فلما قضاها قال : اللهم زوجنى بالُحور العِين ، فقال عمر : ياهذا ! أسأتَ النقد ، وأعظمتَ الخِطبة.

ومن أشهر الصحابة بالمزاح نُعَيْمان ، وهو بَدْرِىٌّ ، شهد بدرا . خرج مرة مع أبى بكر الصديق إلى بُصْرَى ، وكان فى الحملة سُوَيْبِط ، وهو بدرى أيضا ؛ وكان سويبط على الزاد ، فجاءه نعيمان فقال له : أطعمنى ، قال : لا ، حتى يأتى أبو بكر . فقال نعيمان : والله لأغيظنك ، وجاء إلى أناس جلبوا ظهرا ، فقال : ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها

إلا أنه دعَّاء له لسان لعله يقول أنا حُرٌّ؛ فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا عليَّ غلامي ، قالوا : بل نبتاعه منك بعشر قلائص ، فأقبل بها يسوقها ، وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال : دونكم ! هذا هو . فقالوا : قد اشتريناك . فقال سويبط : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فقالوا : قد أُخبرنا خبرك ، ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به . فجاء أبو بكر — رضى الله عنه — فأُخبر بذلك ، فذهب هو وأصحابه ، فردوا القلائص على أربابها وأخذوه . وأُخبر النبي — صلى الله عليه وسلم — بالقصة فضحك منها حولا .

ومن مزاحات نعيمان أيضاً : أنه أهدى إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — جَرَّة عسل اشتراها من أعرابى، وأتى بالأعرابى إلى باب النبي — صلى الله عليه وسلم — فقال : خذ الثمن من هاهنا . فلما قسمها النبي: نادى الأعرابىُّ : ألاَ أُعطَى ثمن عسلى ؟ فقال النبي: إحدى هَنَاتِ نعيمان . وسأله :

لِمَ فعلتَ هذا ؟ فقال : أردت بِرَّك يارسول الله ، ولم يكن معى شىء . فتبسم النبى — صلى الله عليه وسلم — وأعطى الأعرابى حقه .

كذبة ابريل (1)

جرت عادة الأوربيين ، وبعض الأمم الأخرى كالهنود ، أن يكون لهم مزاح عملى فى أول إبريل . فيرسل بعضهم لبعض الهدايا الكاذبة ، ويتواعدون وهم ينوون خلف الوعد ، ويذيعون أخباراً لا أساس لها من الصحة .

أمامنشأ هذه العادة فموضع خلاف شديد بين مؤرخى الاجتماع . وأشهر الآراء فى نشأتها هى :

(١) أن أول إبريل كان أول يوم من أيام الصيد فى بعض الأقطار ؛ ولكن النجاح كان يغلب ألا يرافق

---

(١) وتسمى بالإنجليزية « مغفل ابريل » : « April - fool » وكذلك بالألمانية : « der Aprilnarr » وتسمى بالفرنسية : « سمكة إبريل » : « Poisson d' avril »

الصيادين فى ذلك اليوم — إما لأنهم لم ينشطوا بعد ، وإما لأنهم لم يعرفوا مواطن الصيد الجديدة التى يمكن أن تكون قد تغيرت عما كانت عليه فى العام السابق ، فاستبدل الناس بعادة الإخفاق فى الصيد عادةَ الإخفاق فى المواعيد والهدايا الخ .

(٢) أن كلمة « سمكة » إبريل « پواسون » — «Poisson» محرفة عن كلمة «باسيون» — «Passion» التى معناها «العذاب» والتى تشير إلى ما تكبده السيد المسيح من العذاب فى محاكمته حينما كان يُحوّل من محكمة إلى محكمة تشهيراً به ، وتعذيباً له . وكان ذلك حوالى أول إبريل ؛ فاتخذ الناس هذه العادة احتفالا تهكمياً بتلك الحادثة .

(٣) أنه كان من عادة الناس فى عصر سابق أن يحتفلوا بالربيع وكانت أعياد هذا الاحتفال تبدأ فى ٢٥ مارس وتنتهى فى اليوم الأول من إبريل ؛ وكان احتفالهم فى ذلك اليوم الأخير بهذه الصورة العملية للمزاح .

(٤) ومن الآراء الراجحة فى تعليل هذه العادة أن أوربا أخذتها عن فرنسا التى اتبعت « التقويم الجديد » عند ما أعلن شارل التاسع فى سنة ١٥٦٤ أن العام يجب أن يبدأ بأول يناير . فانتقل إلى أول يناير كل ما كان لأول إبريل (بدء السنة على حساب التقويم القديم) من الاحتفال والتهادى والرسائل . غير أن فريقاً من المحافظين ظلوا ناقين على « التقويم الجديد » ، متمسكين بالتقويم القديم. فاتخذهم أنصار « التقويم الجديد » غرضاً لسخريتهم فى إبريل ، بإرسالهم إليهم هدايا كاذبة ، وأخباراً ملفقة . كأنهم يحتفلون معهم يومهم هذا على هذه الطريقة المضحكة .

ولما اتصل الشرقيون بالغرب نقل بعضهم هذه العادة وأطلقوا عليها اسم « كذبة إبريل » ، وهى تسمية حسنة ؛ أما سبب تسمية هذه العادة « بسمكة إبريل » عند الفرنسيين فيرجع : إما لأن الشمس تنتقل فى أول إبريل من برج الحوت ، وإما لأن السمك فى إبريل يكون صغيراً ومن

ثم يسهل صيده ، كما يسهل صيد « مغفل إبريل » .

ومن أظرف أكاذيب إبريل أن جريدة إنجليزية[1] أعلنت فى مساء ٣١ مارس سنة ١٨٤٦ أنه سيقام فى صباح الغد معرض عام للحمير فى غرفة الزراعة بإسْلِنْجْتُنْ . وفى الصباح أهرع كثير من الناس إلى ذلك المكان لمشاهدة الحمير المعروضة ؛ وظلوا ينتظرون مدة طويلة ، حتى أدركوا أن كذبة إبريل قد أصابتهم ؛ ولم يجدوا ما يشاهدونه غير أنفسهم ! !

الحكم الأخلاقى فى كذبة ابريل :

ولا شك أن ماقلناه فى الكذب المباح فى القصص الفكاهية ينطبق على كذبة إبريل ؛ لأن شيوع العادة يذهب بسبب تحريم الكذب فيها . غير أن لنا هنا تحذيراً نحذره : وهو أن بعض الناس يغالون فى اختراع أكاذيب يترتب عليها أضرار جسيمة . وهذا لا يمكن أن تتسع له دائرة

---

(١) « The Evening Star »

الكذب المباح ؛ وجدير بالرجل الذى يُبرق إلى صديقه بوفاة عزيز عليه ألا يطمع فى تقدير الناس لروح الفكاهة فيه ، إذا كان فى ذلك الخبر صدمة وجدانية عنيفة لمُغَفَّل إبريل ! (١)

الأقاصيص الخرافية :

ومما يندرج تحت الكذب المباح الأقاصيص الخرافية التى تضمنها الأمم صوراً من تاريخها وأدبها ملونة بلون براق ، ومزينة بزخرف القول ، على شرط ألا تحتوى تمجيد رذيلة أو الإشادة بذكر سيئة . فإن فى هذه الأقاصيص غذاء لخيال الطفل لاغنى عنه ، وتثقيفاً لعقول الناشئين بوسيلة مشوقة جذابة ، ولهواً بريئاً جميلا لمحبى القراءة .

يقول أبو القاسم الأصفهانى : « واعلم أن كل كلام خرج على وجه المثل والاعتبار ، دون الإخبار ، فليس بكذب على الحقيقة . ولهذا لايتحاشى المتحرزون من التحدث

(١) راجع Encyclopaedia Britannica: « April - fools' Day »

كقولهم في الحث على مداراة العدو ، والتلطف في خدمة الملوك : إن سبعاً وذئباً وثعلباً اجتمعن فقلن نشترك فيما نتصيد . . . وعلى المثل حمل قوم قوله تعالى : « إِنَّ هَذَا أَخِي ، لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً ، وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ [1] . » وقوله تعالى : « كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ . [2] » فقال يصح هذا لما كان مثلا ، وإن لم تجر العادة بوجود الحبة هكذا . » [3]

ومن ذلك أيضاً مبالغات الشعراء غير الممقوتة [4]

ولأستاذنا الفاضل المرحوم سلطان محمد بك رأى غريب في الحكايات الخرافية ، فهو يلحقها بالكذب المحظور. [5] وأشهد أن حياتنا كانت تكون جدّ تعسة

---

(١) سوة ص آية ٢٣ (٢) سورة البقرة ٢٦١

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة ص ٩٨

(٤) راجع في كتب البلاغة « المبالغات الشعرية » ، وكذلك أدب الدنيا والدين ص ١٧١ - ١٧٢ ، والإحياء الجزء الثالث ص ١٩٩ - ١١٠ ، وكذلك جمهورية أفلاطون الكتاب الثاني فقرة ٣٧٧ ، والكتاب الثالث فقرة ٣٨٦ وفقرة ٤٠٨

(٥) راجع كتاب الفلسفة العربية والأخلاق الجزء الثاني ص ٥٨

مُمِلَّة لو خلت من خرافات « كليلة ودمنة » ، وقصص « لاَفُنْتين » ، ومسرحيات بِرْنَرْدْ شُو وأضرابها .

الكذب المباح عند أفلاطون :

وإن تعجب فعجب أن أفلاطون ، منذ أربعة وعشرين قرناً ، قد تكلم فى الكذب المباح كلاماً دقيقاً حكيما . وإليك ترجمة عبارته فى الجمهورية : « ... فى حين أن الكذب اللفظى نافع فى بعض الأحوال ، وليس بغيضاً : ففى معاملة الأعداء مثلا ، وفى الحالة التى يكون فيها أصدقاؤنا — وهم فى ثورة جنونية أو تحت خطأ الإدراك — على وشك القيام بعمل ضار ، يكون الكذب عندئذ نافعاً ؛ وكأنه نوع من الدواء والوقاية . وكذلك الشأن فيما يتعلق بالقصص الخرافية ، التى كنا نتحدث عنها الآن ؛ فلأننا لا نعرف الحقيقة عن العصور السحيقة فى القدم ، نصور الكذب فى أقرب صورة ممكنة للصدق . » (١)

(١) ترجمتنا للجمهورية (الطبعة المدرسية ، الكتاب الثانى فقرة ٣٨٢)

الفصل الخامس

الكذب فى رأى النفسيين

تمهيد :

لقد عنينا فيما تقدم بالكلام فى الكذب من الوجهتين الفلسفية والدينية ؛ ونريد أن نتكلم فى هذا الفصل عن الكذب من الوجهة النفسية . وبعبارة أخرى : لقد كان جل كلامنا السابق فى كذب الرجل ؛ ونريد أن نتكلم هنا عن كذب الطفل .

الطفل ميال بفطرته الى الصدق :

يرى علماء النفس أن الأصل فى الإنسان أن يبحث عن الحقيقة لذاتها . يقول العلامة وِلْتُنْ : « إن حب الحق لذات الحق لهو الزهرة الجميلة التى تونع من شجرة غريزة حب الاطلاع . أما نماؤها فطبيعى أن يكون متدرجا ؛

ويعلن هذا الاستعدادُ نفسَه ، أولا باحترام الدقة فى التعبير ، ثم بالتعطش للشرح والبيان . . . » [1]

ويرون كذلك أن الطفل يميل بفطرته إلى تقرير الحقيقة ، ولا يعدل عن ذلك إلا لعوامل أخرى تؤثر فيه ؛ لأن قول الحق محاكاة وتقليد ، والطفل بفطرته محاك مقلد . فمن شأن كل فكرة تمر به أن تبحث لها عن طريقة تعلن بها نفسها قولا أو فعلا : فإذا رأى الطفل حادثة ، أو سمع خبراً ، أو أحس أى نوع من الإحساس ، وانتقلت صورته إلى ذهنه ـ كان من الطبيعى أن يعبر عن تلك الصورة الذهنية بألفاظ من عنده . ونحن نرى أن عباراته فى هذه الأحوال صادقة جِدّ صادقة ؛ ولكن علينا أن نلاحظ أن إلى جانب هذه النزعة الفطرية للصدق ، نزعاتٍ أخرى فطرية كذلك ، هى التى تمسخ صور الحقيقة . إن الميل الفطرى للصدق فى عهد الطفولة هشّ قابل للتفتت

---

(١) Welton, Psychology of Education P. 435

السريع ؛ وهو يشبه سطح الغدير الذى يحكى المرآة الصافية ، تثير فيه أقلُّ حركة هوائية آلافَ التموجات والاهتزازات ـ مما يشوه الصور الصادقة التى تعكس على ذلك السطح البلورى الجميل . كذلك النزعات التى تميل بالطفل إلى الكذب ، تهبّ على مرآة الحقيقة فى نفس الطفل ، فتحطم الصور الواضحة المعكوسة عليها ، وتحولها إلى متناقضات ، ومبالغات ، ومُعَمَّيات ، وخزعبلات ، وغير ذلك من أنواع الكذب . ولقد أدرك العرب ذلك حينما نطقوا بمثلهم المشهور : « أكذب من صبى » .

أسباب كذب الطفل :

ونريد أن نبحث هنا فى رأى علماء النفس فى العوامل المعادية للصدق فى الطفولة ؛ ثم نبحث فى كيفية تحصين الميل إلى الصدق من هذه الأعداء .

أما أعداء الصدق فى الطفولة فأمور ثلاثة : الخيال ، والخوف ، والرغبة .

كذب الخيال

إن الخيال يخلق صوراً لا توافق الحقيقة ؛ ولهذه الصور من قوة الإيحاء إلى الطفل ما للحقيقة نفسها . ويؤدى ذلك فى بعض الأطفال إلى ما نشاهده أحياناً من تعلقهم بأهداب الخيال إلى حد الكذب . يقول رِشْتَر[1] : إن بنتاً صغيرة كانت صادقة فى كل شأن من شئونها إلا فى أنها كانت تقص عليه فى حماسة ملتهبة أنها رأت المسيح وهو طفل . وهى تقص ما سمعته يقول وما رأته يفعل . وقد يصحب إخبارَ الطفل بمثل هذه الخيالات شعور بأنها مختلقة ، أو أنها نوع من المزاح ؛ فإذا سألنا الطفل عمن أخبره فربما ذكر اسماً من الأسماء مصحوباً بضحكة خاصة أو علامة من علامات المزاح .

وإنى لأذكر أن طفلا إنجليزياً فى نحو العاشرة من عمره — فى أسرة إنجليزية كنت أقيم معها — كان كلما

---

(١) Richter

جمح خياله بمثل هذه الأكاذيب وسألناه عن مصدرها ، ضحك وقال : أخبرنى بذلك مستر بَنْج - جي «Mr. Bung - Jee» فإذا ضُيِّق عليه الخناق قال : أخبرنى بذلك مستر جى - بَنْج « Mr. Jee - Bung » وكلاهما اسم مختلق لراوية مختلَق لرواية مختلقة .

وعلينا أن نلاحظ أن كل هذا النوع من الكذب ليس إلا جزءا من لعب الطفل ، كما هو شأنه فى كل الألعاب الخيالية الأخرى ، من ادعائه أنه أبوه ، أو أنه المعلم أو الضابط الخ . ومن ثَمّ كان الواجب علينا ألا نوجه إليه مقاومتنا إلا عند ما يبدو فى صورة مروعة . يقول رشتر فى هذا الصدد : « عليك فى جميع هذه الأحوال ألا تَجبهه باتهامه بالكذب فى صراحة مريرة ؛ ولكن عليك أن تقول له : لا تمزح فى هذا الموضوع أكثر مما فعلت ، وكن جاداً . »

على أن الصور الكاذبة التى يتخيلها الأطفال قد ترجع

فى بعض الأحوال إلى ما قرءوه فى القصص والتاريخ ، أو إلى ما سمعوه من أمهاتهم ومربياتهم ، كما قد ترجع إلى أحلام حلَموا بها – ولكن عقولهم المبتسرة لا تقوى على التفريق بين صور الحقيقة وصور الخيال المستمد من القصص ، كما لا تقوى على التميز بين حوادث الأحلام وحوادث اليقظة (١) .

ومن أغرب حوادث الخيال عند الأطفال ما قصته علينا فى محاضراتها فى علم النفس الأستاذة مِس مَثَايَس (٢) من أن أمّا شكت إليها حالة ابنتها الطفلة ؛ فلما بحثت الأستاذة فى شأنها ألفتها تعاتب أمها على سيرها السريع فى أثناء تنزههما ، لأن أخاها الصغير (ولم يكن ذلك الأخ إلا من خلق خيالها) لا يقوى على السير معهما بتلك السرعة . وقد اتضح أن هذا الأخ المزعوم لم يكن إلا أمنية

(١) وهذا الخلط بين حوادث الأحلام وحوادث اليقظة قد يحدث لنا نحن الكبار .

(٢) Miss Stella Mathias, University of the South West, Exeter.

من أمانى الطفلة أخذت تقوى وتسيطر عليها حتى اختلطت بالحقيقة .

كذب الخوف

أما الأكاذيب التى تنشأ عن الخوف فهى أعظم خطراً ، وقد تكون أسوأ عاقبة ، من أكاذيب الخيال ؛ فالطفل إذا خاف مربيه ـ أبا كان ، أو أماً ، أو معلماً ـ غلب أن يكذب عليه . فليحذر هؤلاء الحذر كله من الأسئلة التى يوجهونها إلى الأطفال فى شكل « محضر تحقيق » ؛ لأنها كثيراً ما تحمل الطفل على إنكار "الخطيئة" التى يعلم أنه ارتكبها . فلنقف على ما نشاء من المعلومات عما ارتكب من الذنوب ، ولكن من غير أن ندخل الطفل « قفص الاتهام » لنحقق معه ، وليذكر كل منا عهد صباه وما كنا نعانيه فيه من خوف الآباء والمعلمين ، والذعر من تأنيبهم وغضبهم ، وما كنا نشعر به حينئذ من نزوع إلى ستر الحقيقة مخافة العقوبة .

إن الطفل إذا شعر بثقته بالقائمين على أمره ، وبأنهم على استعداد للعطف عليه ومساعدته ، لم يجد له ربحاً يربحه بخداعهم وبستر الحقيقة عنهم ؛ إذ أن مصلحته هى فى أن يعرفوا دائماً الأمور على حقيقتها كى لا يخطئوا مصلحته [1].

ألا إن مثل عقوبة الكذب الذى مصدره الخوف ، كمثل الاستشفاء من داء بداء ؛ فالعقوبة تبعث فى النفس خوفاً جديداً يعضُد الخوف القديم فى هجومه على حرم الحقيقة .

وخير علاج للطفل الذى يزلّ هذا الزّلة هو شعور الوالدين بالأسى والحزن ـ وإظهار ذلك الشعور فى حزم واعتدال ـ على انفراط عِقد الثقة التى كانت بينهما وبين ولدهما ؛ ومحاولتُهما ، فى رفق ولين ، استعادة تلك الصلة القلبية الوثيقة التى تربط قلبيهما بذلك القلب الغض ، مما

(١) راجع رأى رسو فى الكذب ، الفصل السابع من هذا الكتاب .

يجعل العودة إلى تلك الخطيئة مستحيلا أو قريباً من المستحيل . وهنا لابد لنا من الالتجاء إلى فضائل أخرى لتعيننا على بعث فضيلة الصدق ـ والفضائل ينمى بعضها بعضاً ـ فالشجاعة وعزة النفس إذا أثيرتا فى نفس الغلام حملتاه على احتقار الخضوع للخداع فى سبيل النجاة من عقوبة قد تكون موهومة .

كذب الرغبة :

هذا هو كذب العَمْد ، وهو أخبث أنواع الكذب ؛ لأنه نتيجة الرغبة فى الكذب والاحتيال المدبر للنجاة من تبعات جرّها الغلام على نفسه . والفرق بينه وبين كذب الخوف أن كذب الخوف مبني على الجبن عن إعلان الحقيقة ، فهو خطأ فى تقدير الطفل أوقعه فيه فقدان ثقته فى عطف مربيه ، وصفحه ، وإغضائه . أما هذا الضرب من الكذب فبنى على خبث الطوية ؛ قد يفكر فيه الصبى قبل أن يقدم

على العمل الذى سيكذب فراراً من عقوبته . وهذا الكذب يصور لنا صورة نفسية فظيعة : هى حالة قد قهر فيها الحذقُ الضميرَ ، وفيها تصبح الأخلاق مهددة بسيطرة الذكاء على المبادىء . وهذا هو الكذب الذى وصفه ابن المقفع إذ يقول : « رأس الذنوب الكذب : هو يؤسسها ، وهو يتفقدها ، ويثبتها . ويتلون ثلاثة ألوان : بالأمنية ، والجحود ، والجدل . يبدو لصاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من الشهوات ، فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى ؛ فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة ؛ فإن أعياه ذلك ختم بالجدل ، فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج ، والتمس به التثبت ، وكابر به الحق ، حتى يكون مسارعاً للضلالة ، ومكابراً بالفواحش . »[1]

وهنا نوصى بالتعنيف اللاذع ، والعقاب الرادع . هنا يجب أن يشعر الطفل بأن من هم حوله يصبون جام غضبهم

---

(١) الأدب الصغير ص ٤٧ - ٤٨

ونقمتهم واحتقارهم على كذبته . ويجب الحذر من الخلط بين احتقاره هو واحتقار كذبته . إننا نريد احتقار كذبه لا احتقاره هو ؛ فنحن فى الوقت الذى نعلن فيه سخطنا على كذبته النكراء ، نمد إليه يد العطف لانتشاله من الهوة السحيقة التى تردى فيها ، ونساعده على تطهير نفسه من تلك الرذيلة .

إن التغاضى عن خداع الطفل ينتج تشجيع الكذب وحب الختل . وأمضى سلاح فى يدك تصرع به ذلك الكذب — وحذارِ حذار أن تصرع الطفل ! — هو ألا تصدقه وهو صادق . فإذا جاءك يخبرك بأن زائراً قد حضر — وأنت تعلم أن زائراً قد حضر حقاً — فلا تأبه لقوله ولا تظهر تصديقك إياه (واحذر أن تقول له مع ذلك إنى أكذبك !) ولكن ابق فى مكانك ؛ حتى إذا ما أقبل عليك الزائر أظهرت للطفل أول اعتراف بعلمك بوجود الزائر .

أو إذا أخبرك الطفل بأن زائراً يسأل عنك ، فأرسل غيره ليرى أكان هناك من يسأل عنك . فمثل هذه المعاملة المبنية على عدم ثقتك بأقوال الكاذب ـ من غير أن تنازله منازلة صريحة علنية خشيةً أن تثير فى نفسه حب العناد ـ جدير بأن يَشفيه من مرض الكذب .

ونحن نحذر الآباء والمعلمين منازلة الأطفال ، أو عدم تصديقهم بدون داع قوى ، لأن ذلك ـ كما أشرنا ـ قد يثير فيهم حب العناد ، والتلذذ بالكذب والإصرار عليه ، واعتباره جزاء طبيعياً لأولئك الذين لا يصدقونهم . مرّ عمر بن الخطاب بصبيان يلعبون ، وفيهم عبد الله بن الزبير ، فهربوا منه إلا عبد الله . فقال له عمر : مالك لا تهرب مع أصحابك ؟ فقال : ياأمير المؤمنين ، لم أكن على ريبة فأخافك ، ولم يكن الطريق ضيقاً فأوسع لك . وازن بين ثقة هذا الغلام بسامعه ، وثقة تلاميذنا بمعلميهم . فإنهم يعتقدون

أنهم لن يصدقوهم فى خبر من الأخبار ؛ ومن ثم كانت معظم أكاذيبهم .

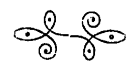
ومن المألوف أن نجد طفلا لا يحيد عن الحق مع أشخاص يثقون بنزاهته ، فى حين أنه يكذب على شخص خاص ، لأن ذلك الشخص يعتقد فى الطفل الكذب . ألا إن مما يؤسف أن يخدع الطفلُ الوالد أو المعلم ؛ غير أنه مما يحزن الحزن كله أن ضياع الثقة من قلوب الكبار ، يؤدى إلى ضياع الصدق والصراحة من ألسنة الصغار .

ولعل خير ما نختتم به هذا الفصل طريقه شيخ المعلمين الإنجليز ، الدكتور أرنُولْد ، الناظر الأسبق لمدرسة رَجْبى[1] . فإنه كان إذا شعر بأن تلميذاً يكذب عليه قال له: أى بنى ، هذا قولك ، وإنى لفى حيرة ، ولكن لا مندوحة لى عن تصديقك . ولقد ربت هذه الطريقة فى الأولاد

---

(١) Dr. Thomas Arnold, Headmaster of Rugby School (1795 — 1842)

شعوراً بأن من العار عليهم أن يخدعوا ذلك الأستاذ الذى يحترمهم ، ولا يرتاب فى صدق أقوالهم . وكان بعضهم يرى أن من النذالة أن يخدع ذلك الرجل الطيب « الساذج » . ولقد كان الدكتور أرنولد طيباً من غير شك ؛ ولكنه لم يكن ساذجاً ، وإنما كان حكيما . فقد خلق بطريقته هذه معنى الكرامة ومظهرها فى نفوس تلاميذه .



الفصل السادس

نظرية أرستطاليس فى الكذب

تكلم أرستطاليس فى الكذب ، فى كتابه « علم الأخلاق إلى نيقوماخوس »[1] وإنى لملخص هنا مذهبه فيه.

الصدق وسط بين رذيلتين كلتاهما كذب

يرى أرستطاليس أن الصدق وسط بين رذيلتى التَّنَفُّج[2] أو المبالغة ، والتحفظ أو التعمية ؛ فمن استمسك بهذا الوسط فقد أظهر نفسه كما هى عليه ، فهو صادق فى عيشته كما هو

---

(١) راجع الباب السابع من الكتاب الرابع فى الترجمة العربية لأحمد لطفى السيد بك ، وفى الترجمة الفرنسية للأستاذ سنت هيلير « Saint Hilaire » ، والباب التاسع من الكتاب الرابع فى الترجمة الإنجليزية للأستاذ تشيس « L. P. Chase » ، والباب السابع 1127 a فى الترجمة الإنجليزية للأستاذ رس « W. D. Ross » ، والباب الثالث عشر من الكتاب الرابع فى الترجمة الألمانية للدكتور رلفس « T. E. Rolfes »

(٢) تنفج : افتخر بأكثر مما عنده .

صادق فى قوله . ومثل هذا الشخص ، حين يتكلم عن نفسه ، يسند إليها مالها من صفات الخير فلا يزيد فيها زهواً وإعجاباً ، ولا ينقص منها حياء وتواضعاً . .

الصدق أقرب إلى إحدى هاتين الرذيلتين من الأخرى

ولكن أرسطو يرى أن الصدق أقرب إلى حد التفريط ، وهو التحفظ والتعمية ، منه إلى حد الإفراط ، وهو التنفج والمبالغة : « تبين من هذا أن الرجل الصادق الذى يلتزم حد الوسط القويم (الصدق) جدير بالثناء ؛ وأن أولئك الذين يجرى الكذب على ألسنتهم ، فى أية صورة ، خليقون بالملامة . غير أنى أعترف بأن الأحمق ، الفخور ، الصّلِف ، أجدر بالمذمة » . ويقول فى موضع آخر : « أما الذين يجنحون للتواضع ، وبخس الأشياء قيمتها فهم أقرب إلى قلوبنا من ذوى الصلف والمبالغة . وأهل هذا الخلق (خلق التواضع) يأنفون من دواعى الشهرة ؛ وما حديث سقراط عنا بخفى . »

نقد نظرية أرسطاليس :

لقد وضع أرسطاليس نظريته فى الوسط ، منادياً أن الفضيلة وسط بين طرفين هما الإفراط أى الإغراق ، والتفريط أى التقصير ؛ وكل منهما رذيلة ، وقال إن ذلك الوسط ليس الوسط الرياضى الذى تكون نسبته إلى كل من الطرفين واحدة ، بل هو وسط إضافى أو ، كما سماه ، وسط أخلاق : فقد يكون أقرب إلى حد الإفراط ، كالكرم فإنه أقرب إلى الإسراف منه إلى التقتير ؛ وقد يكون أقرب إلى حد التفريط ، كالعفة فإنها أقرب إلى خمود اللذات منها إلى الفجور . ثم طبق أرسطو نظريته هذه على جميع الفضائل ومن بينها الصدق . ولكننى أرى أن فى إخضاع الصدق لنظرية الوسط إرهاقاً له وتكلفاً ، ومداً لسلطان النظرية على أرض أجنبية لا تخضع لها . فنحن نفهم أن يكون الكرم وسطاً بين رذيلتين متناقضتين ، هما الإسراف والتقتير ، ونفهم أن تكون الشجاعة وسطاً بين

رذيلتين متباينتين تمام التباين ، هما التهور والجبن ؛ وندرك أن العفة وسط بين رذيلتين متنافرتين إحداهما مع الأخرى ، هما الفجور وخمود اللذات ؛ و نقبل أن يكون الحلم وسطا بين رذيلتين على طرفى نقيض ، هما الشراسة والبلادة ؛ إلى آخر الفضائل التى طبق عليها أرستطاليس نظريته فى الوسط ، عدا الصدق فإننا لا نستطيع أن نفهم أن يكون وسطاً بين المبالغة فى القول ، والتحفظ والتعمية فيه . لأن للصدق دائماً صورة واحدة ، وكل ماعداها ، بزيادة أو بنقص ، كذب . وليس بين الطرفين اللذين يزعمهما أرسطو للصدق تباين وتناقض كذلك الذى بين كل طرفين من أطراف الفضائل الأخرى . فالزيادة فى الخبر والنقص فيه متشابهان تمام التشابه من حيث حيدتهما عن الصورة الوحدة التى يتحقق فيها الصدق ، ولذلك يسمى كل منهما كذباً ؛ ولا كذلك أى طرفين آخرين ، فإننا لا نستطيع أن نجد اسما مشتركا يصح أن نطلقه على كل من التهور والجبن باعتبارهما حيدة

عن الشجاعة ، أو على الفجور وخمود اللذات باعتبارهما حيدة عن العفـة ، أو على الإسراف والتقتير باعتبـارهما حيدة عن الـكرم ؛ واعتبر هـذا فى سائر الأطراف مع فضائلها .

وثمة خطأ آخر وقع فيه أرسطاليس ، وهو زعمه أن الصدق (وهو الوسط) أقرب إلى أحد الطرفين اللذين يكتنفانه منه إلى الآخر : فهو يزعم أن الصدق أقرب إلى التحفظ والنقص ، منه إلى المبالغة والزيادة . ولا شك ان هذا الخطأ متفرع على خطئه السابق ، وهو محاولته إخضاع فضيلة الصدق لنظرية الوسط . والحق ان ليس الصدق أقرب إلى إحدى الرذيلتين منه إلى الأخرى ، فـكلتاهما كذب لاشك فيه ، وللصدق كما قلنا صورة واحدة ، وأقل حيدة عنها بزيادة أو بنقص تلحقها بالـكذب .

ولن يشترى أرسطو رضانا عن رأيه بعبارته الخلابة التى ذم فيها المبالغة وسماها حمقاً ، وزهواً ، وصَلَفاً ؛ على

حين عطف على التعمية والنقص فسماهما جنوحاً إلى التواضع، وأنفة من دواعي الشهرة ؛ ثم لوّح لنا بسقراط وتواضعه . لن نوافقه على رأيه ، لأن إفساد الخبر بالنقص كإفساده بالزيادة ، بل ربما كان النقص في الخبر أشد أثراً في البعد عن الصدق . ألا يكفي أن تحذف أحياناً كلمة واحدة من الخبر لتحوله إلى عكس ما يريد صاحبه ؟[1]

وبعد فإن المقياس في الصدق والكذب ـ كالمقياس في سائر الفضائل والرذائل — هو الباعث ؛ فمتى تحقق الباعث على تغيير الحقيقة ، فسواء في نظر الأخلاق أن يحدث هذا التغيير بزيادة أو بنقص .

ولو شاء أرسطو أن يكون أقرب إلى الصواب في تطبيق نظرية الوسط على الصدق ، لقال إن الفضائل تختلف في قربها من الأطراف ، فبعضها أقرب إلى طرف

(١) يراجع ما كتبناه في الفصل الأول عن صور الكذب رقم (١) ، (٢) ، (٦) ، ص ١٩ ، ٢٠ ، ٢٢

الإفراط ، وبعضها أدنى إلى طرف التفريط ، غير أن الصدق وحده (ولو شاء لأضاف إليه العدل) يكون وسطه بين طرفيه وسطاً رياضياً ، لا أخلاقياً ، فنسبة بعده عن أحد الطرفين كنسبة بعده عن الآخر .

الصدق بقطع النظر عن النتائج :

ويرى أرستطاليس أن الرجل الصادق هو الذى يقول الصدق بقطع النظر عن أن يكون ذلك الصدق متصلا بمنافع جدية له ، بل هو يقوله لأنه خلقه الذى تخلق به . وإن رجلا هذا خلقه لرجل شريف يحب الحق ؛ فإنه إذا كان يقول الحق حتى فى الأحوال التى لا مصلحة له فيها ، فإنه — من باب أولى — يقول الحق فى الأحوال التى يلتقى فيها قول الحق بمصلحته . إنه يتجنب الكذب فراراً من معرة الكذب ؛ ذلك هو الخلق الجدير بالإعجاب والاحترام .[1]

---

(١) راجع قول ابن السماك فى آخر الفصل الثالث : « ما أرانى أوجر على ترك الكذب ، لأنى إنما أدعه أنفة . » ص ٤٨ — وما أجمل

الكذب درجات :

يعرف كل مطلع على فلسفة أرستطاليس أنه كان فيلسوفاً عملياً ؛ ولذلك نراه يجعل الكذب درجات بعضها أقل إثماً من بعض : فإذا كذب المرء حباً فى شرف يناله ، أو رغبة فى شهرة تصل إليه ، لم يكن جد أثيم . بخلاف الرجل الذى يكذب سعياً وراء المال ، أو الشئون المادية ، فإن إثمه أعظم ؛ إذ أن غاية الكذب فى الحالة الأولى أرقى من غايته فى الحالة الثانية . وكأن أرستطاليس هنا ينادى بأن الغاية تبيح الوسيلة . والحق أننا نخالف أرسطو هنا ؛ فإننا ، مع اعترافنا بأن بواعث الكذب تتفاوت ، لا نجيز الكذب فى أية صورة من الصور التى ذكرها . وما كان أجدره أن يتابع أستاذه أفلاطون فى

ما يقول السيد توفيق البكرى : « يقول الحق ولو أغصه الحق بريقه ، ولم يترك له أحدا من صديقه ؟ »

(القائل الصدق فيه ما يضر به والواحد الحالتين السر والعلن)

دقته وتحديده عند ما عرض للكذب المباح فى جمهوريته[1] وما أشبهه فى غموضه هذا بمحيي الدين بن عربى .[2]

وأخيراً ، يبيح أرسطو التهكم ، على أن يكون ظريفاً ، معتدلا ، وفى الأشياء التى ليست مبتذلة .

وقد عقد أرسطو فصلا مستقلا للمزاح ، وجعله وسطاً بين المجانة والفظاظة ، وقال عنه إنه ضرورى للحياة ولا غنى للمجتمع عنه[3] . ولقد بسطنا فى الفصلين الثالث والرابع رأينا فى هذا الموضوع فليرجع إليه .[4]

---

(١) راجع « الكذب المباح عند أفلاطون » فى الفصل الرابع من هذا الكتاب ، ص ٧٢

(٢) انظر ص ٥٤

(٣) انظر الباب الثامن من الكتاب الرابع من « الأخلاق إلى نيقوماخوس » .

(٤) ص ٤٥ — ٤٨ ، ٦٢ — ٧١

الفصل السابع

الكذب فى رأى رُسُّو

تمهيد

لقد كتب رُسُّو فى الكذب ، كما كتب فى معظم مايتعلق بالتربية الجسمية والعقلية والخلقية ، كتابة جريئة ولكنها فى جملتها حميدة : ذلك لأن جرأتها وخروجها على المألوف من الآراء ، هو الذى يوقظ الانتباه إليها ، لتمحيصها ، وإدراك ماتتضمنه من السداد .

وإنى لمترجم هنا ما كتبه عن الكذب ذلك الفيلسوف الثائر [١] وإن كنت سأخالفه فى ترتيب الفكرة ؛ لأنه يكتب كعادته مستطرداً غير مرتب [٢]

---

(١) Jean Jacques Rouseau, Emile Ou L'Education.

(٢) وقد نهجت مثل هذا النهج مع أرسططاليس فى الفصل السابق ، ومع ستانلى هول فى الفصل التالى .

أنواع الكذب :

يرى رُسوّ أن الكذب نوعان « نوع يتعلق بحقيقة قد وقعت ، ونوع يتعلق بواجب مستقبل . ويقع النوع الأول حينما نثبت أو ننفى ، بالباطل ، أننا فعلنا شيئاً ؛ أو بعبارة أعم ، حينما نخبر بخلاف الحقيقة مع علمنا بذلك . ويقع النوع الثانى عند ما نَعِدبما ننوى عدم الوفاء به . ولقد يكون من الكذب ما يجمع هذين النوعين جميعاً ؛ ولكن الذى يعنينى هنا هو الفروق التى بينهما . »[١] وهذا يوافق ما قررناه فى أول هذا الكتاب من الإطلاقين اللذين للصدق والكذب .[٢]

---

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٥

(٢) راجع الفصل الأول ص ١٣

سبب الكذب عند الطفل :

ويرى رسو أن من أهم أسباب الكذب خوف الطفل وعدم ثقته بالقائمين على أمره [١] : « إن من يشعر بحاجته إلى مساعدة غيره له ، إن من لا يبرح يشعر بعطفهم عليه ، لا يربح شيئاً بخداعهم . ومن الجلي أن منفعته إنما هي فى أن يعرفوا الأمور على حقيقتها ، كى لا يخطئوا مصالحه. » [٢]

الكذب غير طبيعى فى الأطفال :

« فمن الجلى بناء على ذلك أن الكذب المتعلق بالحقائق التى وقعت ليس طبيعياً فى الأطفال ؛ وإنما يفرض عليهم الكذبَ قانونُ الطاعة . وما دامت الطاعة بغيضة إلى الأطفال فإنهم يكذبون سرا جهد استطاعتهم ؛ فترجح لديهم كفة المنفعة الحاضرة من تجنب العقوبة أو التأنيب ، على كفة المنفعة البعيدة من الإخبار بالحق . وماذا يحمل

---

(١) راجع « كذب الخوف» فى الفصل الخامس ص ٧٩ — ٨١

(٢) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٥

طفلك على الكذب إذا كان ناشئاً تحت سلطان تربية طليقة طبيعية ؟ وماذا عسى أن يكون لديه مما يجب أن يستره عنك ؟ فأنت لا تعارضه ، وأنت لا تعاقبه ، وأنت لا تطلب منه شيئاً ، فلماذا لا يحدثك عن كل شيء باليسر الذى يحدث به رفيقاً من رفقائه ؟ فهو لا يرى نفسه أكثر استهدافاً للخطر فى أحد المسلكين منه فى الآخر . » [1]

ويرى رسو أن النوع الثانى من الكذب أقل ملاءمة لفطرة الطفل من النوع الأول : « أما الكذب الناشىء عن خلف الوعد فأقل انطباقاً على طبيعة الطفل ؛ ذلك لأن الوعد بالقيام بعمل من الأعمال ، أو بالكف عنه ، ليس إلا اتفاقاً عرفياً لا علاقة للطبيعة به ؛ وهو اتفاق يحدّ من حريتنا . على أن كل المواثيق التى يأخذها الطفل على نفسه جوفاء ؛ فهو لا يقدر ما يفعل حينما يُقدِم على عهد يقطعه على نفسه ؛ فنظره القصير لا ينفذ من الحاضر إلى المستقبل.

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٥

والطفل يكاد لا يكذب وهو يَعِدُ ، فكل ما يعنيه إذ ذاك هو التخلص من ورطته الحاضرة ؛ وفى ذلك تتساوى لديه جميع الوسائل التى لا تجُرُّ نتائج سريعة ، إنه حينما يَعِد للمستقبل لا يعد بشىء أصلا ؛ فخياله الآن عاجز عن أن ينقله إلى المستقبل ، وهو يعيش فى الحاضر ؛ فإذا ضمن الخلاص من سوط العقاب ، أو الحصول على قرطاس من الحلوى ، بوعده أن يلقى بنفسه من النافذة غداً ، لم يتردد فى ذلك الوعد . وهذا هو السبب فى أن القانون لا يعترف بأى ميثاق من المواثيق التى يأخذها على أنفسهم المرءوسون أمام رؤسائهم ، فإذا أراد الآباء والمعلمون أن يكونوا حَزَمَةً ، بمقاضاة الأطفال الوفاء بوعوهم ، فليكن ذلك حيث يكون العهد متعلقاً بأمر ينبغى أن يفعله الطفل ولو لم يكن قد سبق أن وعد به . » (١)

---

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٥ — ٦٦

لماذا يخلف الطفل وعده :

ويقول رسو فى موضع آخر معللا خلف الوعد عند الأطفال : « إن الطفل لا يمكن أن يكون كاذباً عند ما يأخذ على نفسه عهداً ؛ لأنه وهو يأخذ على نفسه العهد ، لا يدرى ما يفعل . . . ، فهو يذكر جلياً أنه قد قطع على نفسه عهداً ؛ ولكنه لا يستطيع أن يدرك خطر المحافظة عليه . وبما أنه عاجز عن اختراق حجب المستقبل ، لا يستطيع أن يتكهن بعواقب الأمور ؛ فهو حين ينكث بعهده لا يرتكب أمراً مناقضاً لحالته العقلية . »[1]

جريمة المعلمين فى كذب الأطفال :

ويرى رسو بناء على ماتقدم أن كذب الأطفال ليس راجعاً إلى ميلهم إلى الكذب ، ولكنه من وحى المربين الخرق : « ومن ثمّ لم تكن أكاذيب الأطفال إلا من عمل معلميهم ، فإن محاولة تعليم الأطفال قول الصدق

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٦

لاتثمر إلا تعليمهم فن الكذب . فإنك فى تحمسك للسيطرة على الأطفال ، ومراقبتهم ، وتعليمهم ، لاتجد الوسائل الكافية طوع يمينك . فأنت ترغب فى أن يكون لك سلطان جديد على عقولهم بحِكَمٍ لا أساس لها ، وقواعد غير معقولة ، وإنك لتفضل أن يعرفوا دروسهم ، ويكذبوا ، على أن تتركهم جاهلين ، وهم صادقون . إننا ـ نحن الذين لا نعطى تلاميذنا إلا دروساً عملية ، نحن الذين نفضل لهم أن يكونوا طيبين على أن يكونوا مهرة ـ لا نطالبهم بالحقيقة خشية أن يستروها ، ولا نلزمهم المواثيق خشية أن يميلوا إلى النكث بها . »[1]

ثم يعود رُسّو إلى هذه الفكرة فى موضع آخر فيزيدها إيضاحاً : « فإذا لم تكن السرعة رائدنا فى التعليم ، لم يكن ثمةَ مقتض للسرعة فى التحقيق مع الأطفال ، وإذ ذاك نستطيع أن نسير على مهل بحيث لا نطالب الطفل بشىء

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٦

إلا فى الأحوال الملائمة . . . أما إذا جاءنا مغفل ممن يسمون أنفسهم معلمين ، وهو لا يدرى عن صناعته شيئاً ، فإنه لا يبرح يحمل تلميذه على الوعد بعمل هذا الشىء وذلك الشىء ، من غير تفرقة ولا اختيار ، ولا تناسب؛ عندئذ يرتبك الطفل ، وتثقل كاهله تلك المواثيق ؛ فيهملها ، أو ينساها ، بل إنه يمتهنها ، ولا ينظر إليها إلا على أنها عبارات جوفاء ، فيتخذ من أخذ المواثيق والنكث بها أُلْهُوَّة له وسلوى . فإذا شئت أن يكون طفلك أميناً على مواثيقه ، فلتكن معتدلا فى طلباتك إليه . »(١)

عقوبة الكذب :

لرُسّو فى العقوبة كما له فى كل عوامل التربية ، رأى جرىء جدير بالدرس والتمحيص . وقد تناولنا فى كتاب آخر رأى رسو فى العقوبة الطبيعية بصفة عامة .(٢) ويعنينا

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٧

(٢) فلسفة العقوبة ص ١٠٠ — ١٠٧

هنا أن نترجم ما كتبه عن عقوبة الكذب: «فإذا ارتُكب في غيبتي ذنب من الذنوب، ولم أعلم مرتكبه، فسأحتاط بألاّ أتّهم إميل، ولا أقول له: أأنت فعلت هذا؟[1] لأنني بذلك لا أعمل إلاّ على تعليمه الإنكار. فإذا حملني مِزاجه الشّموس على أن نتعاهد معاً على أمر من الأمور، فسأحتاط كل الإحتياط بأن يأتي الاقتراح دائماً من جانبيه، وألا يأتي اقتراح العهد مني مطلقاً؛ وبأن يكون له في كل عهد يقطعه على نفسه مصلحة قوية مباشِرةٌ في الوفاء به؛ وبأنه إذا أخفق في الوفاء بذلك العهد جلبَت عليه كذبته جميع العواقب

---

(١) يعلق رسو في حاشية ص ٦٦ على هذه العبارة بما يأتي: «لا شيء أشد خرقا من مثل هذا السؤال، ولا سيما إذا كان الطفل مذنباً. فإنه إذا ظن أنك تعرف ما ارتكب، اعتقد أنك تنصب له شركاً بهذا السؤال، وهذه الفكرة كافية في إبعاده عنك ومعارضته لك. وإذا ظن أنك لا تعرف فسيقول لنفسه: «لماذا أعلن ذنبي؟» وهنا ينشأ أول باعث مغر بالكذب، نتيجة مباشرة لسؤالك الأحمق.»

السيئة التى يراها ناشئة من الترتيب الطبيعى للأمور ، لا من حب المعلم للانتقام منه . »[١]

ويقول قبل ذلك ماهو متمم لفكرته هذه : « طالما ناديت بأنه لايجوز أن تنزل بالأطفال عقوبة على أنها عقوبة ! بل يجب أن تكون دائماً نتيجة طبيعية لأخطائهم . فلا تَثُر فى وجه أكاذيبهم ؛ لأننا فى الحقيقة لانعاقبهم على كذبهم ، ولكننا نرتب الأمور بحيث تقع العواقب السيئة للكذب على رءوس الأطفال الذين يكذبون ، كألاّ يُصَدّقوا وهم يقولون الصدق ،[٢] أو كأن يُتهموا بما لم يقترفوا ، على الرغم من احتجاجهم . »[٣]

علاج الكذب :

غير أن رسو لاينصح بهذه العقوبة الطبيعية للكذب إلاّ على أنها آخر الدواء ؛ ذلك بأنه يرى أن الأفضل حماية

---

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٦
(٢) راجع « كذب الرغبة » فى الفصل الخامس . ص ٨٣ — ٨٤
(٣) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٥

الطفل من الكذب بدل علاجه منه وقد أصيب به . وسبيله إلى ذلك استقلال إرادة الطفل ، وعدم تكبيلها بإرادة من حوله : « غير أنى بدلا من الالتجاء إلى مثل هذه العقوبات القاسية ، أكاد أكون على يقين من أن إميل ستمرّ به أعوام كثيرة قبل أن يعرف ماهية الكذب ؛ وأنه حين يسمع به سيستولى عليه الدهش ، وسيعجز عن إدراك المنفعة التى يثمرها الكذب . ومن الجلى أنه كلما جعلت هناءته أقل اعتماداً على إرادة غيره وخضوعا لآرائهم ، قلّ انتفاعه بالكذب . » (١)

وهو يذكّر إميل بطريقته هذه فى رجولته ليأخذ بها ابنه : « إننى حين ربيتك فى أحضان الطبيعة السمحة ، استعضت عن إرشادك إلى الواجبات الثقيلة ، مناعةً لك من الرذائل التى تجعل مثل تلك الواجبات ثقيلة . فلم أجعل

---

(١) إميل ، الكتاب الثانى ص ٦٧

الكذب فى نظرك بغيضاً بقدر ماجعلته غيرضرورى ...»[١]

هذا هو رأى رسو فى الكذب ، قد تركته هو يتحدث عن آرائه بعبارة ملؤها حرارة اليقين ، وأسلوب مقنع فاتن .

---

(١) إميل ، الكتاب الخامس ص ٤٠٨

الفصل الثامن

نظرية ستانلي هول في الكذب (١)

سنتكلم فى هذا الفصل عن رأى العلامة ستانلى هول فى الكذب وأسبابه . فقد درس ثلثمائة طفل عادى دراسة دقيقة تبين منها أن كذب الأطفال يرجع إلى واحد من ستة أسباب هى : الخيال ، والحب ، والبغض ، والأثرة ، والبطولة ، وجنون الكذب ، والوقاحة .

١ — كذب الخيال :

وقد تكلم هول فى كذب الخيال بما يكاد لا يختلف عن رأى غيره من علماء النفس ، مما أوضحناه فى الفصل الخامس . (٢) ولكننا نقتبس هنا الفقرتين التاليتين من كلامه فى كذب الخيال :

---

(١) راجع كتابه «المراهقة» : «Stanley Hall, Adolescence» فى الأنواع الخمسة الأولى من الكذب ، الجزء الأول ص ٣٤٩ — ٣٥٢ ، وفى النوع السادس ، الجزء الثانى ص ٣٦٦ — ٣٦٧

(٢) انظر ص ٧٦ – ٧٩

« إن الأمزجة الخيالية تسوق ، فى بعض الأحيان ، الأطفال الذين هم بين الثالثة والرابعة إلى التأكيد لجأة بأنهم رأوا خنزيراً ذا خمس آذان ، وتفاحاً على شجر « الكريز » وأعاجيب خرافية أخرى ـ مما لايدل فى الواقع على شىء أكثر من أنهم قد حصلوا على صورة عقلية مركبة من نوع جديد ليس فى تجاربهم . »

« إن السير جمس ما كنتوش ، قبيل بلوغه وبعد أن قرأ تاريخ الرومان ،كان من عادته أن يتصور نفسه عاهل القسطنطينية . وكان يدير شئون تلك المملكة ساعات متواصلة فى بعض الأحيان ؛ غير أن خياله هذا لم يصل فى يوم من الأيام إلى منزلة العقيدة من نفسه . ألا إن طور المراهقة هو العصر الذهبى لهذا النوع من الخيال وأحلام اليقظة ، لهذا النوع من الخيال الذى يساعد الحقيقة ويكمل القوى العقلية ، والذى كثيراً ما يكسب الاستعداد للتمثيل جمالا وفتنة ـ وإن كان فى بعض الأحوال البغيضة يحبب

إلى الأطفال الكذب والنفاق . وتلك حال تنبعث عنها بعض الصفات السيئة فى العقل والحياة ؛ ولكنها كذلك تنبعث عنها بعض الصفات الطيبة فيهما : تلك هى الأكاذيب السامية التى تتمثل شعرا ، وفنا ، ومثلا عليا ؛ ولكن على المشرف على تربيتها أن يكون حكيما . »

٢ — كذب الحب والبغض :

يرى ستانلى هول أن الطفل كالرجل الهمجى (١) يخضع فى تقديره الصدقَ والكذبَ لعاملى الحب والبغض: فهما يصدقان مع الأصدقاء ، ويريان الكذب حلا مباحاً مع الأعداء . ويستدل على ذلك بأن الصداقة تتوثق عراها بالثقة والأسرار المتبادلة ؛ فإذا أخذتْ عُراها تنفصم فإن العهود والمواثيق التى كانت قد تبودلت بين الصديقين بألا يخبر أحدهما عن أسرار الآخر ، تأخذ فى الانحلال

---

(١) هذه الفكرة ليست إلا مظهراً من مظاهر نظريته العامة فى أن الطفل يمثل الطفولة البشرية فى مراحلها المختلفة .

والضعف . ومن ثم كان الأطفال يستبشعون الكذب على رجال الدين .

ويفرق هول فى هذا الكذب بين البنين والبنات ، يقول : « إن الأولاد أقدر من البنات على مواصلة الأكاذيب التى تآمروا عليها ، وإن كانوا أسرع منهن فى الاعتراف بأكاذيبهم إذا ماضيق عليهم الخناق . » ولقد تركنا هول من غير أن يعلل لنا ذلك الاختلاف ؛ ولكن الواقف على طبيعة المرأة ، وضعفها ، وشعورها بذلك الضعف ، ووجدانيتها ـ لايجد صعوبة فى إدراك صدق هذه القضية .

٣ — *كذب الأثرة* :

ومن أخبث أنواع الكذب كذب الأثرة الذى يخرج الأطفال من كثير من مآزق الحياة . ويرى هول أن هذا النوع أكثر شيوعاً فى الأطفال من غيره ، ويراه كذلك أكثرها إفساداً لأخلاق الأطفال، وأعصاها على علاج المربين .

ومعظم العادات السيئة تعبّد الطريق لهذا النوع من الكذب ، فإنه يكاد يكون من المحقق أن الأطفال إذا ما ارتكبوا إثماً لجئوا إلى الكذب لإخفاء آثامهم . غير أنه مما يُسَرِّى عنا قليلا أن الالتجاء إلى الكذب هنا لا يكون إلا فى حالات التهيج ، والشعور بالخطر المحدق ؛ وأن من الممكن عقب انقضاء هذه المحنة أن يشعر الطفل بخطئه .

٤ — كذب البطولة :

وهو الكذب الذى يرتكبه الطفل فى سبيل غاية شريفة . ويرى هول أن فى المراهقين استعداداً طيباً لتكييف الشئون الأخلاقية ، والنظر إليها نظرة شاملة يقدرون فيها العمل ، غايته ووسيلته . فبعض الأطفال الذين لا يكذبون إلا قليلا ، يعلنون أن من واجبهم أن يقولوا إن أمهم ليست فى الدار ـ على حين أنها فى الدار ـ إذا كان فى ذلك إنقاذ لها . ولقد يسبب ذلك الشعور اختلاطاً على الطفل فى فهم الواجبات الأخلاقية . وخير علاج له فى هذه

الحالة هو أن ترشده إلى أن الكذب هو كذب الضمير الباطنى الذى يشعر به والذى يجب ألا يخضع لغير أوامره .

٥ — الفشفشة أو جنون الكذب (١)

ومن ضروب الكذب هذا الضرب الجنونى الذى يولع به بعض الأطفال ، ولا سيما البنات فى العقد الثانى من أعمارهن — بنات قد ملأت الأثرة نفوسهن ، وملك عليهن الادعاء والخيلاء قلوبهن ، وأصبحن خاضعات لعاطفة تميل بهن دائما إلى القيام بدور يسترعى انتباه الناس إليهن . وقد أثبت البحث الحديث فى علم النفس التحليلى ، والتنويم المغناطيسى ، وجود أمثلة مدهشة لهذا المرض فى كل من الأولاد والبنات . ولا شك أن من أعجب ما نشاهد أن

---

(١) يسمى هذا النوع من الكذب بالإنجليزية : «Pseudomania» وقد رأيت أن أترجمه إلى : جنون الكذب ، أو مرض الكذب ، أو « الفشفشة » . قال فى القاموس : فشفش ، أفرط فى الكذب .

نجد شخصا يسمى الأبيض أسود ، ويخرج على الحقيقة نهارا جهارا . [١] وإن بعض المحتالين الذين تتألف حياتهم من أكاذيب واختلاقات ، ليسوا إلا مثلا لهذا المرض النفسى . إن هؤلاء الكُذَّب يسرهم ما يحدثونه من المشاكل ؛

---

(١) أرى أنه قد يشوب هذا الضرب من الكذب قدر من الوقاحة التى يذكرها هول فى رقم « ٦ » ، فيفتن بعض الناس بالكذب فتنة جنونية ، ثم يحصنون أنفسهم باللجج والمكابرة . ومن الأمثلة المأثورة لذلك مارواه المبرد فى « الكامل » حيث يقول : « إن قصاصاً كان يكثر الحديث عن هَرِم بن حَيَّان ، فاتفق هرم معه فى مسجد وهو يقول : حدثنا هرم بن حيان ، مرة بعد مرة ، بأشياء لا يعرفها هرم . فقال له : ياهذا ، أتعرفنى ؟ أنا هرم بن حيان ، ماحدثتك من هذا بشىء قط . فقال له القاص : وهذا أيضاً من عجائبك ! إنه ليصلى معنا فى مسجدنا خمسة عشر رجلا ، اسم كل رجل منهم هرم بن حيان ، كيف توهمت أنه ليس فى الدنيا هرم بن حيان غيرك ؟ » ولا شك أن هذا هو الكذب الذى عناه ابن المقفع فى عبارته التى اقتبسناها فى كذب العمد إذ يقول : « . . . فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة ، فإن أعياه ذلك ختم بالجدل ، فخاصم عن الباطل ، ووضع له الحجج ، والتمس به التثبت وكابر عن الحق . . . »

وما يوقعون فيه الناس من الاضطراب ؛ بل إنهم ليتلذذون بإعلانهم وجود أشياء معدومة وإنكار أمور موجودة .[1]

جنون الصدق

ويرى هول أن إلى جانب هذه النزعة ، التى سميناها « جنون الكذب » نزعة أخرى فى بعض المراهقين هى « جنون الصدق » أو « جنون الْحَرْفيَّة » . وهؤلاء يعدون أى انحراف عن **حرفية الحقيقة** اعتداء شنيعا على الحقيقة ؛ ولقد تدعوهم نزعتهم هذه إلى الإغراق فى التزام حروف الأخبار التى يروونها . فإذا خانتهم ذاكرتهم فى بعض الألفاظ خشُوا أن يكون فى التعبير عن مدلولاتها بألفاظ من عندهم

---

(١) ومما يتصل بهذا النوع من الكذب مانشاهده فى بعض الناس من ميل إلى تغيير طفيف فى الحقيقة لغير سبب ، فإذا سألت أحد المصابين بهذا المرض عن ثمن سيارته أو حلته مثلا أجابك بالثمن الحقيقى مضافاً إليه قدر ضئيل لا يقدم ولا يؤخر فى الموضوع ، وإذا سألته عن المدة التى ظل ينتظرك فيها مثلا أضاف إلى الحقيقة بضع دقائق . فهو بذلك يرضى هذا النهم الغريب .

كذب . ولذلك يروعك ما تجده فى عباراتهم من مئات « أظن » و « لعل » و « عسى » و « ربما » . . .

٦ — كذب الوقاحة:

وقد يكون منشؤه الفخر والإعجاب ، ولكنه يتجرد منهما عادة بعد سن العاشرة ، ويبقى الكذب وقحا جريئا . وفى كثير من الحالات التى يكون فيها هذا الضرب من الكذب مسيطرا ، طاغيا ، متحديا ، يكون باعثه الشعور المؤلم بالضعة والنقص ؛ وهو شعور قد يتحول فى هذه السن إلى حقد وضغينة ، ويكوّن ما يسمى فى علم النفس « عقدة نفسية » : « Inferiority complex » (١)

---

(١) ما أجمل مايقول رسو فى هذا الموضوع : « فكل الخبث ينشأ من الضعف ، ولا يدعو الطفل إلى الخبث إلا ضعفه ، فامنحه قوة يصبح خيراً ، وإذا كان فى استطاعتنا أن نفعل كل شىء ، لم نرتكب شراً . » إميل ، الكتاب الأول ، ص ٣٣ ، ويقول فى موضع آخر : « . . . لأن الآلام والرذيلة متلازمان . وليس فى الدنيا رجل انقلب شريراً إلا بعد أن أصبح منكودا . » إميل ، الكتاب الخامس ، ص ٤٠٦

احصاء فريانى (1) عن أسباب الكذب

وقد قام العلامة فِرْيَانِى بدراسة عـدد من الأطفال المجرمين ، ليقف على أسباب اعتيادهم الـكذب ، فوصل إلى تسعة أسباب ذكرها فى الإحصاء الآتى :

(١) ٤٧٢ كذبوا بباعث الغرائز والضعف .

(٢) ٤٠١ « « الدفاع عن النفس .

(٣) ٣٦٠ « « الغرور والرغبة فى أن ينالوا من غيرهم

(٤) ٢٣١ « « المحاكاة .

(٥) ٣٨٧ « « الأثرة .

(٦) ١٩٥ « « الغـيرة ، والحسد ، وحب الانتقام .

(٧) ٤٨٨ « « الخيال .

(٨) ٣٧٠ « « الـكسل .

(٩) ٢٩ « « عزة النفس .

---

(1) Ferriani

ويتضح من هذا الإحصاء أن كذب الخيال أعلاها نسبة ، وأن أكاذيب الضعف والغرائز والدفاع عن النفس تليه مباشرة ؛ على حين أن الكذب الناشئ عن عزة النفس أقلها جميعاً . وتعليل ذلك أن عقل الطفل النشيط يتخيل دائما ، ويرى الأشياء كما ينبغي أن تكون فى رأيه ؛ كما أن الضعف والخوف يغريان كثيراً بالاستتار والتمويه لتجنب التعنيف والعقوبات . أما الطفل الذى يتحرك فيه الشعور بعزة النفس فيندر أن يسلك لتحقيقه سبيل الكذب .

ونحن إذا نظرنا فى الأسباب الستة التى ذكرها ستانلى **هول** ، وكذلك فى الأسباب التسعة التى ذكرها فريانى ، ألفيناها جميعها تكاد ترجع إلى الأسباب الثلاثة الرئيسة التى ذكرناها فى الباب الخامس ، وهى : **الخيال** ، **والخوف** ، **والرغبة** .

(١) فتحت عامل الخيال يندرج — مما ذكره هول وفريانى — كذب الخيال ، وبعض الصور لجنون الكذب.

(٢) وتحت عامل الخوف يندرج : بعض الصور لكذب الأثرة ، وبعض الصور لكذب الوقاحة ، وكذب الغرائز والضعف ، وبعض الصور لكذب الدفاع عن النفس ، وبعض الصور لكذب المحاكاة ، وبعض الصور لكذب الغرور والنيل من الغير ، وبعض الصور من كذب الكسل ، وقليل من صور الكذب للغيرة والحسد وحب الانتقام .

(٣) وتحت كذب الرغبة يندرج : كذب الحب والبغض ، وبعض الصور من كذب الأثرة ، ومعظم الحالات فى كذب البطولة ، وبعض الصور لجنون الكذب ، ومعظم الصور فى كذب الوقاحة ، وبعض الأحوال لكذب الدفاع عن النفس ، وجزء من كذبى الغرور والأثرة ، ومعظم صور الكذب للغيرة والحسد وحب الانتقام ، وبعض صور الكذب للكسل ، والكذب لعزة النفس .

خاتمة

وخاتمة القول أن على الآباء ، والأمهات ، والمعلمين ، أن يحرصوا الحرص كله على التزام الصدق قبل أن يؤملوا أن يتحلى بالصدق أطفالهم . فإن الأطفال ينظرون إليهم نظرة تقديس ، ويعتقدون فيهم الكمال ، كمال المثل الأعلى ؛ فإذا تعددت تجاربهم ، واتسع أفقهم العقلى ، فرأوا أن أولئك الذين كانوا يحسبونهم ملائكة الصدق ، ليسوا إلا شياطين الكذب — ذابت نفوسهم حسرة ، وخابت آمالهم ، واندك صرح الكمال أمامهم ، وغاب عن أعينهم مصباح المثل الأعلى الذى كان ينير السبيل لهم .

ألسنا نذكر جميعاً مقدار الحسرة التى نزلت بنفوسنا يوم علمنا أن هناك من العلم والحكمة ماليس فى طوق والدينا أو معلمينا ؟ ومقدارَ الاضطراب والحيرة يوم كشف لنا عن بعض الأكاذيب التى كان يكذبها بعض من عهد إليهم أمر تربيتنا ؛ إذ اتضح لنا أنهم كانوا يأمروننا

بالبر وينسون أنفسهم ؟ وما أسعد الطفل الذى لاتتزعزع ثقته بوالديه ومعلميه فى أية ناحية من نواحى الحياة ! مثل هذا الطفل فى مأمن من الخطر الذى يتهدد مثله الأعلى .

ومما يدعو إلى الارتياح والطمأنينة أن معظم الأطفال ، فى الظروف العادية ، يخشون الكذب ، ولا يقدمون عليه إلا لأحد سببين : الخيال أو الخوف ؛ وإن كثيراً منهم ليفزع إلى الحق عقب تورطه فى كذبة سِيق إليها فى ساعة من ساعات ضعفه وخور عزيمته . ألست ترى أن الطفل يحب أن يستمع إلى القصص الحقيقية التى وقعت بالفعل لوالده ، أو لمعلمه ، أو لصديقه ؟ وأنه دائب السؤال : أهذا قد حدث حقيقة ؟ ألست تشاهد احتجاج الطفل على أى تغيير يطرأ على نص حكاية من الحكايات التى يحبها ويعرفها ؟ إنه لا يتردد فى إسماعك صوته الصغير ، مقاطعاً لك ؛ لأنك حِدْتَ عن حرفية النص الذى يحفظه هو[1] . وما أصدق

(١) راجع عبارة ولتن التى اقتبسناها فى أول الفصل الخامس من هذا الكتاب ص ٧٣ — ٧٤

الحكاية الفكاهية المشهورة التى تحدث عن الأب الذى قال لابنه : اذهب فأخبر الطارق أنى لست هنا . فذهب الطفل يقول للطارق : أبى يقول إنه ليس هنا ! ! ألا إن أجود الفكاهات ما كان وثيق الاتصال بنفسية الأفراد والجماعات ، وأشهد إن واضع هذه الفكاهة لمن أعلم الناس بنفسية الأطفال.

وحسب الكذاب عقاباً فرار الناس من تصديقه ، وإن كان صادقاً . قيل لأرسطاليس: ما كسب الكذابين ؟ قال : عدم تصديقهم فى شىء وإن وافقوا الواقع . وما أصدق المثل العربى الذى يقول : « ليس لكذاب رأى . » !

وبعد فإنى أختتم بحثى هذا بتلك الكلمة البليغة التى كتبها ابن المقفع : « إن الكذاب لا يكون أخا صادقا ؛ لأن الكذب الذى يجرى على لسانه إنما هو من فضول كذب قلبه — وإنما سمى الصِّديق من الصدق ؛ وقد يُتهم صدق القلب وإن صدق اللسان ، فكيف به إذا ظهر الكذب على اللسان ؟ » (١)

---

(١) الأدب الكبير ص ٨٥

أهم مراجع الكتاب

(١) القرآن الكريم .

(٢) العهد القديم .

(٣) العهد الجديد .

(٤) علم الأخلاق إلى نيقوماخوس لأرستطاليس ،

به فصل فلسفى فى الصدق والكذب ، وفصل آخر فى المزاح وحدوده المباحة .

(٥) إحياء علوم الدين للغزالى ،

الجزء الثالث : به بحث دينى فى الكذب وتحريمه ، وبحث قويم فى الكذب المباح ، وفصل فى فضول الكلام ، وآخر فى المبالغة والتشدق ، وبحث شائق فى الشعر ومبالغاته . وبحث دينى فى المزاح .

والجزء الرابع : فيه بحث فلسفى فى الصدق ومراتبه .

(٦) أسرار الشريعة الإسلامية للمرحوم الأستاذ ابراهيم على المدرس بدار العلوم سابقاً ـ به بحث دينى شائق .

(٧) الفلسفة العربية والأخلاق للمرحوم سلطان محمد بك الأستاذ بدار العلوم سابقاً ،

به باب عن الصدق ، والكذب المباح ، والخرافات .

(٨) أدب الدنيا والدين للماوردى ،
به بحث دينى أدبى .

(٩) الذريعة إلى مكارم الشريعة ، لأبى القاسم الأصفهانى
به بحث دينى فلسفى .

(١٠) روضة العقلاء ، ونزهة الفضلاء ، لأبى حاتم البستى ،
به بحث أدبى .

(١١) شروح التلخيص ، الجزء الأول به مناقشة نفيسة فى آراء علماء البلاغة فى الحدود الفاصلة بين الصدق والكذب.

(١٢) الأدب الصغير } لابن المقفع
(١٣) الأدب الكبير }

بهما فصول متناثرة ، مليئة بصور فلسفية رائعة للصدق والكذب.

(١٤) الكامل للمبرد ،

(١٥) تهذيب الكامل ، للأستاذ السباعى بيومى المدرس بدار العلوم ، بهما بحوث فى الكذب متفرقة ، وأخبار المشهورين بالكذب من العرب ، ونماذج من صراحة العرب .

(١٦) العقد الفريد لابن عبد ربه ،
به نماذج من صراحة العرب وفصل عن المزاح .

(١٧) روضة الطالبين، وعمدة السالكين للغزالى،
به بحث شبيه ببحثه فى « الأحياء ».
(١٨) نهاية الأرب للنويرى، فى الجزء الرابع باب طويل عن المزاح المباح والمحظور.
(١٩) Sisson, Essentials of Character.
به بحث نفسى فى كذب الأطفال.
(٢٠) The Pocket R. L. S.
به مقالة فلسفية أدبية.
(٢١) Mackenzie, Manual of Ethics.
به بحث فلسفى فى معانى الكذب، وفى الكذب العملى وفى الكذب المباح.
(٢٢) Bacon, Essayes
به مقالة ممتازة جدا عن الكذب والنسر فى قبحه.
(٢٣) Stanley Hall, Adolescence.
به بحث نفسى فى كذب الأطفال، وأسبابه، وإحصاء لتجارب شخصية للمؤلف ولغيره من العلماء.
(٢٤) J. J. Rousseau, Emile ou De L' Education
به بحث أخلاقى فى كذب الأطفال، وأسبابه، وعلاجه، وعقوبته.
(٢٥) Aylmer Maude, Tolstoy and His Problems.
به فقرات فلسفية ذات قيمة.

(٢٦) T. W. Pym, Psychology of Christian Life
به بحث فى الكذب من الوجهتين النفسية والدينية (المسيحية).

(٢٧) J. C. Hare, Guesses at Truth.
به بحوث لنواح عدة للصدق والكذب .

(٢٨) Plato, The Republic.
به بحوث فى كذب الحكام .والكذب المباح ، وكذب الشعراء . . الخ . . .

(٢٩) Sidgwick, Practical Etchics.
به أمثال عملية للكذب المباح .

(٣٠) W. O. Stapledon, Modern Theory of Ethics
به بحث فلسفى فى أسباب تحريم الكذب .

(٣١) E. R. Mumford, The Dawn of Character.
به فصل على عن الخيال وأثره فى الخلط بين الحقيقة والوهم.

(٣٢) Welton, The Psychology of Educstion.
به بحوث موجزة عن كذب المرأة وعن الخيال وأثره فى أحلام اليقظة أو الهس ، وعلاقة الصدق ببعض الغرائز .

فلسفة الكذب

الفهرس الهجائى

فهرس الصفحات

صفحة

صـــفحة

صـــفحة